المنهج الحق فى التربية
من خلال وصايا لقمان لابنه
فى محكم القرآن

إعداد
الدكتور/ أبو بكر السيد الباز
مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

ة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله الذى خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، وأقام إعمار الأرض على الزوجين الذكر والأنثى فتناسل منهما بنات وبنين، أجيالا متواصلة، كل جيل يسلم الراية لمن بعده لتتم خلافة آدم وبنيه فى الأرضين.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى هو خير أب فى العالمين وأزواجه أمهات المؤمنين وبنوه شامة البنين.

حض على تعليم الأولاد الأدب الحسن فقال ﷺ: "أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم".(١)

وقال: "لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع".(٢)

وقال: "ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن".(٣)

والأخلاق لم يولد الطفل بها وإنما يقبل على الدنيا صفحة بيضاء إما أن تزان بالخير أو تشان بالشر، وقلبا صافيا رقيقا، إما أن ينور بالحق أو يسود بالباطل.

١- سنن ابن ماجه للحافظ عبد الله محمد بن يزيد القزوينى - كتاب الأدب حديث رقم ٢١١/٢/٣٦٧١ دار الريان للتراث.

٢- سنن الترمذى - كتاب البر والصلة - باب ما جاء فى أدب الولد ٣٣٧/٤ ط/ مصطفى البابى الحلبى.

٣- المصدر السابق ٣٣٨/٤.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فمن رعاه حق رعايته واتقى الله فى تربيته على الدين والخلق والعلم والمعرفة كان بَرّاً به رِدْءاً له وعضداً فى حياتـــه، وأثـــراً طيبا بعد مماته يهدى إليه دعوة صالحة أو صدقة جارية.

وكان للمجتمع لبنة قوية صالحة تقيم بنيانه وتشد من أزره.

ومن أهمل تربيته كان وبالا عليه فى حياته عاقاً له يمسه شره ويحرقه شرره وربما جر عليه اللعنة بعد مماته وكان لبنة فاسدة تقوض بنيان المجتمع وتكون عاملاً من عوامل تداعيه.

وهذا لقمان الحكيم قد بلغ من العناية بتربية ولده ذراها حتى استحق أن يورد القرآن ذكره ويخلد نهجه ويضعه نبراسا هاديا أمام المربين وهذا المنهج اللقمانى هو موضوع هذا البحث وقد تناولت فيه شخصية لقمان عليه السلام ووصاياه التربوية التسع من خلال الآيات الثمانية التى وردت فى الســـورة المســـماة باســـمه (سورة لقمان) من الآية الثانية عشرة حتى الآية التاسعة عشـــرة وقسمت دراستها إلى ثلاثة مباحث:-

المبحث الأول: عن لقمان وتناولت فيه اســـمه ووطنـــه وزمنـــه وصنعته وهل كان نبيا؟

المبحث الثانى: وتناولت فيه الوصايا التى تصلح الباطن وهـــى ست التوحيد والإحسان إلى الوالدين والاســـتقامة وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهى عـــن المنكر، والصبر.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

المبحث الثالث: وتناولت فيه الوصايا التي تصلح الظاهر وهي
وزنة: التواضع والقصد في المشي والغض من
الصوت.

وأرجو هذه المباحث بوصايا نسبت إلى لقمان وعلقت عليها
بخاتمة ثم بالمراجع والله أسأل أن ينفع به وأن يوفقنا إلى ما
يرضاه.

د/ أبو بكر السيد الباز

ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الأول

من هو لقمان؟

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.(١)

أجملت الآية ذكر لقمان ولم تزد على أنه أوتى الحكمة وأمر بشكر الله تعالى عليها، ولم يرد فى القرآن ذكر له فى غير هذا الموضع، كما لم يرد حديث صحيح يكشف عن نسبه وصفته وأحواله إلا أحاديث ضعاف عن بعض الصحابة والتابعين وأقوال لبعض العلماء والمفسرين، وكل ذلك لا يعول عليه بل يستأنس به فى بيان اسمه وموطنه وهيئته وصفته، وهل كان نبيا؟ وكذلك اسم ولده وهاك ما قالوه.

١- اسمه.

قيل هو لقمان بن عنقاء بن سدون أو سرون أو شيرون وهو قول حكاه السهيلى وقدمه ابن حجر واقتصر عليه ابن كثير فى تفسيره.(٢)

١- سورة لقمان الآية ١٢.

٢- أنظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ٥٣٧/٦ دار الريان للتراث. وتفسير القرآن العظيم للحافظ إسماعيل بن كثير القرشى ٤٤٤/٣ عيسى البابى الحلبى.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقيل هو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابـــن خالتـــه، قاله الزمخشرى والألوسى، وقيل مـــن أولاد آزر عـــاش حتـــى أدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم.(١) وجمع القاضيان أبو الســعود والبيضاوى بين هذين القولين فقالا: هو لقمان بن باعوراء مـــن أولاد آزر وابن أخت أيوب أو ابن خالته.(٢)

ويظهر أنهم اعتمدوا فى ذلك على ما قاله ابن إسحاق من أنـــه من ذرية آزر وعلى ما روى عن وهب ومقاتل من أنه ابن أخـــت أيوب أو ابن خالته.(٣)

وليس هو لقمان بن عاد العربى المشهور الذى ورد ذكره فـــى قول بعضهم:

تراه يطوّف الآفاق حرصا ∴ ليأكل رأس لقمان بن عاد

وكان يعرف بلقمان صاحب النسور، واسم ابنه لُقَيْم أنجبه مـــن أخته كما قال الشاعر:

لقيم بن لقمان من أخته ∴ وكان ابن أخت له وابنما(٤)

١- أنظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون القاويل فى وجوه التأويل لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى ٢١٠/٣ دار المعرفة، وروح المعانى فى تفســير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة الألوسى البغدادى ٨٢/٢١ المركز الإسـلامى للطباعة والنشر.

٢- أنظر تفسير أبى السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريـم ٢٨٩/٤ دار الفكر، وتفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأســرار التـأويل ٢٢٧/٢ دار الكتب العلمية.

٣- أنظر تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ٥٣١٦/٧ دار الغد العربـــى وفتـح البارى ٥٣٧/٦ - ٥٣٨ وروح المعانى ٨٢/٢١.

٤- أنظر لسان العرب/ لقم.

حة ضوئيا بـ CamScanner

وعليه فلقمان اسم أعجمى، لا عربى مشتق من اللقم وهو سرعة الأكل والمبادرة إليه، وإن كان وزنه عربيا على فعلان كنعمان ويظهر أن العرب نقلوه إلى العربية بهذا اللفظ واسم ابنه كما قال السهيلى باران أو داران أو ثاران، وقيل غير ذلك.(١)

وطنه:

لم تخرج الروايات التى رواها الطبرى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن المسيب وخالد الربعى - أحد التابعين - عن كونه نوبيا أو حبشيا ولم يذكر الطبرى ما يفيد غير ذلك.

وقال السهيلى كان نوبى الأصل من أهل أيلة.(٢) وروى عن مجاهد أنه كان حبشيا وقاضيا على بنى إسرائيل.(٣)

والقول بأنه من أولاد آزر أو ابن أخت أيوب أو ابن خالته لا يتناسب مع كونه نوبيا أو حبشيا لأن أولئك لم يكونوا يستوطنون النوبة أو الحبشة فإبراهيم عليه السلام ولد ببابل وارتحل إلى الشام فأقام بها وأيوب عليه السلام كان من بلاد الروم على ما نقله ابن كثير.(٤)

قال صاحب التحرير والتنوير (وأكثر الروايات فى شأنه التى

١- أنظر فتح البارى ٥٣٨/٦ وتفسير القرآن العظيم ٤٤٤/٣.

٢- قال صاحب التحرير والتنوير (وهى المساء اليوم "العقبة" وهى مدينة على ساحل البحر الأحمر قرب شبه جزيرة طور سيناء وهى مبدأ أرض الشام من جهة مصر، وكانت من مملكة إسرائيل فى زمان داود عليه السلام) تفسير التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر بن عاشور ١٤٧/٩، الدار التونسية للنشر والدار الجماهرية للنشر والتوزيع والإعلان.

٣- أنظر جامع البيان لأبى جعفر الطبرى ٤٣/٢١-٤٤ دار الريان للتراث وفتح البارى ٥٣٨/٦.

٤- أنظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٣١، ٢٦٧ مطبعة الأنوار المحمدية.

ة ضوئيا بـ CamScanner

بعضها بعضا وإن كانت أسانيدها ضعيفة تقتضى أنه كان من السود فقيل هو من بلاد النوبة وقيل من الحبشة).[1]

قلت: ولعل هذا هو الأقرب إلى الصواب لما تدل عليه هيئته المروية فى الروايات من الصفات التى تتناسب وأهل الحبشة أو النوبة، ولا يمتنع أن يكون نوبى الأصل عاش فى أيلة كما قال السهيلى أو حبشيا قاضيا على بنى إسرائيل كما روى عن مجاهد.

زمنه:

بناء على ما قيل من أنه ابن أخت أيوب أو ابن خالته فإنه يكون معاصراً لأيوب أو عقبه قريبا منه وقال صاحب الفتح (وفى المستدرك بإسناد صحيح عن انس قال إن لقمان كان عند داود وهو يسرد الدرع فجعل يفتله هكذا بيده فجعل لقمان يتعجب ويريد أن يسأله ويمنعه حكمته أن يسأله)[2] ..... الحديث.

وهذا صريح فى أنه عاصر داود عليه السلام[3] قال: (وقد ذكره ابن الحوزى فى "التلقيح" بعد إبراهيم قبل إسماعيل وإسحاق والصحيح أنه كان فى زمن داود)[4].

وقال الألوسى (والأكثرون على أنه كان فى زمن داود عليه السلام).[5]

١- التحرير والتنوير ٢١/ ١٤٨-١٤٩.

٢- المستدرك على الصحيحين للإمام أبى عبد الله الحاكم النيسابورى كتاب التفسير/ تفسير سورة سبأ ٢/٤٢٢-٤٢٣ دار الفكر، وأشار الذهبى فى تلخيصه بذيل الكتاب أنه على شرط مسلم.

٣، ٤- أنظر فتح البارى ٦/٥،٥٣٧

٥- أنظر روح المعانى ٢١/٨٣.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا لا يستقيم مع القول بأنه ابن أخت أيوب أو ابن خالته لأن أيوب من ذرية إبراهيم عليه السلام على ما قرره ابن كثير وإبراهيم جده الرابع أما داود فإبراهيم جده الثاني عشر على ما نقله ابن كثير.(١)

فكيف يعقل أن يكون معاصراً لأيوب ثم معاصراً لداود وبينهما ثمانية أجداد إلا أن يكون امتد بلقمان الأجل حتى بلغ زمن داود فقد روى أنه عاش ألف سنة وهو بعيد.

والقول بأنه من أولاد آزر أكثر بعداً، إلا أن يكون من أولاده الأباعد.

وأقرب ما يقال أنه نوبى أو حبشى الأصل من أهل أيلة عاش فى زمن داود عليه السلام والتقى به وتعلم منه.

صنعته:

عن مجاهد: كان قاضيا على بنى إسرائيل وهو قول لابن عباس، وعن ابن عباس أيضا وخالد الربعى أنه كان نجارا، وقيل كان نجادا يصنع الفرش والوسائد، وقيل كان خياطا.

وعن عمرو بن قيس كان يرعى الغنم، وقيل كان يحتطب كل يوم لمولاه حزمة حطب.(٢)

١- أنظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٦٧، ٤٨٠.

٢- أنظر جامع البيان ٢١/٤٣-٤٤، وتفسير القرطبى ٧/٥٣١٧-٥٣١٨، وفتح البارى ٦/٥٣٧ والمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز للقاضى ابى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى تحقيق عبد السلام عبد الشافى محمد ٤/٣٤٧ دار الكتب العلمية.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل كان نبيا؟

جمهور أهل التأويل على أنه لم يكن نبيا وإنما كان رجلا صالحا آتاه الله الحكمة، وممن قال بهذا قتادة وابن عباس فقد روى عنهما أنه لم يكن نبيا ولم يوح إليه.(١)

وروى عن عكرمة والشعبى قولهما بنبوته.(٢)

وأقول مع ابن عاشور تغمده الله بواسع فضله:

(ويظهر من الآيات المذكورة فى قصته هذه أنه لم يكن نبيا لأنه لم يمتن عليه بوحى ولا بكلام الملائكة والاقتصار على أنه أوتى الحكمة يومئ إلى أنه ألهم الحكمة ونطق بها، ولأنه لما ذكر تعليمه لابنه قال تعالى: ﴿وهو يعظه﴾ وذلك مؤذن بأنه تعليم لا تبليغ تشريع).(٣)

وعلى هذا فالحكمة التى أوتيها لقمان ليست وحيا ولا نبوة، وعن قتادة أنها الفقه فى الإسلام، وعن ابن عباس هى العقل والفهم والفطنه، وعن مجاهد: هى العقل والفقه والإصابة فى القول.(٤)

وقال الراغب: (هى معرفة الموجودات وفعل الخيرات).(٥)

١- أنظر تفسير ابن كثير ٤٤٤/٣، والمحرر الوجيز ٣٤٧/٤.

٢- أنظر جامع البيان للطبرى ٤٤/٢١ وتفسير القرطبى ٥٣١٦/٧ والبحر المحيط لأبى حيان ١٨١/٧ دار الكتب العلمية.

٣- التحرير والتنوير ٢١/ ١٤٨.

٤- أنظر جامع البيان ٤٣/٢١ وروح المعانى ٨٣/٢١.

٥- مفردات الراغب/ حكم.

camscanner ـة ضوئيا بـ

وقال الإمام الرازى: (هى توفيق العمل بالعلم).[1]

وقال أبو حيان: (هى المنطق الذى يتعظ به ويتنبَّه به ويتناقله الناس لذلك).[2]

(وقيل كمال حاصل باستكمال النفس الإنسانية، باقتباس العلوم النظرية، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها، وفسرها كثير من الحكماء بمعرفة حقائق الأشياء على ما هى عليه بقدر الطاقة البشرية).[3]

وهذا الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فلا مانع من أن يراد بها كل هذه المعانى.

والإيتاء: الإعطاء، مستعار هنا للإلهام.

و(أنْ) فى قوله (أن أشكر لله) مفسرة لإيتاء الحكمة لأن إيتاء الحكمة فيه معنى القول، وعليه الزمخشرى وجل المفسرين.[4]

ومعنى القول فى إيتاء الحكمة ظاهر لأن الإيتاء كما مر مستعار للإلهام ولكن كيف يكون الشكر مفسراً للحكمة؟

يجيب الزمخشرى فيقول (وقد نبه الله سبحانه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقى هو العمل بهما، وعبادة الله والشكر له،

١- تفسير الرازى المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازى فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر ٢٥/ ١٤٦ دار الفكر.
٢- البحر المحيط ٧/١٨١.
٣- روح المعانى ٢١/٨٣.
٤- أنظر الكشاف ٣/٢١١.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر).[1]

وهو كلام حسن لى فيه تفصيل فقد علمنا أن الحكمة قول وعمل موافقان للحق مرضيان لله سبحانه، والشكر كذلك، فالشكر ليس ثناء على الله تعالى بلفظ الشكر فحسب، وإنما هو إلى ذلك قول الخير على وجه العموم وعمل مواكب لهذا القول.

وفى لسان العرب (والشكر عرفان الإحسان ونشره .... والشكر مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية، فيثنى على المنعم بلسانه ويذيب نفسه فى طاعته ويعتقد أنه موليها)،[2] وظاهر القرآن والسنة أن الشكر يكون بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان.(٣)

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[4] أى اعملوا عملا هو الشكر واعظم هذا الشكر العملى عبادة الله تعالى، ويدل لذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه فقالت له عائشة رضى الله عنها، أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً.[5]

١- المصدر السابق ٣/٢١١، ٢١٢.

٢- لسان العرب بتصرف/ شكر.

٣- أنظر تفسير القرطبى ٨/٥٥٤٥، ٥٥٤٦ وروح المعانى ٢٢/١٢٠ وإحياء علوم الدين كتاب الصبر والشكر للإمام أبى حامد الغزالى ٤/٨٠ المكتبة التجارية الكبرى.

٤- سورة سبأ بعض الآية ١٣.

٥- صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب إكثار العمال والاجتهاد فى العبادة ٤/٥٠ ط عيسى البابى الحلبى.

camscanner بـ ضوئيا حة

وكل نعمة لها شكر من جنسها، فشكر المال بذل منه للفقراء، وشكر نعمة الصحة بذل منها للضعفاء، وشكر نعمة العلم هداية الناس وإفهام الجهلاء، وشكر نعمة الهداية طاعة الله ورسوله ﷺ.

وإذا عرفنا هذا تبين أن الشكر ترجمة للحكمة فالحكمة قول وعمل مُوفَّقان، والشكر كذلك فساغ أن يكون تفسيرا لها.

وجعلها الزجاج مصدرية، وأنَّ المعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة لأن يشكر لله[1] وعليه فالمصدر المؤول مفعول لأجله.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أى لا يتجاوز نفع الشكر من شكر، ويؤكده قوله﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ مستغن عن شكر عباده بحمده لذاته سبحانه ولذا قال رسول الله ﷺ "سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك".[2]

ونلحظ هنا أنه عبر عن الشكر بالفعل المضارع وعن الكفر بالفعل الماضى للإشارة إلى أن الشكر لا يتم بجزئه بل يجب الدوام والاستمرار على أدائه ليتم.

أما الكفر فيكفى فيه ارتكاب موجبه وإن قل،فهو يتم بجزئه.

فكل جزء من الكفر كفر تام، وللإشارة أيضا إلى أن الشكر يجب أن يتجدد ويستمر شأن المضارع وأن الكفر يجب أن ينقطع شأن الماضى فمن كفر ينبغى أن ينسلخ من الكفران ويقبل على

١- أنظر البحر المحيط ٧/ ١٨١.

٢- صحيح مسلم كتاب الصلاة باب ما يقال فى الركوع والسجود من حديث روته عائشة رضى الله عنها. ١/ ٣٥٢.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشكر لله.[1]

وفى قوله ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ تحريض لمن يشكر، وترغيب.

وفى قوله ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ تهديد لمن كفر وترهيب.

والتحريض والتهديد أو الترغيب والترهيب قوتان دافعتان للإنسان نحو الاستقامة على صراط الله الذى شرعه.

ذاك هو لقمان الحكيم أوتى حكمة ترجمها الشكر لله بالقول والعمل الصالح.

وأن يكون الأب مثل لقمان فمما توجبه الحكمة أن يربى ولده بها وان يورثه إياها فضلا عن غيره من الناس.

فانظر كيف ربى هذا الحكيم ولده، وكيف وضع أصول التربية فى هذه الوصايا التى سجلها القرآن الكريم وقد وجه ستا منها إلى إصلاح الباطن وقدَّمها،وثلاثا إلى إصلاح الظاهر، أعقب بها فنراه ركز على الباطن لأنه منبع الخير والشر،وما الظاهر إلا إفرازات الباطن.

وهاك الوصايا التى وجهها إلى ولده ومن ثم إلى كل ولد ليصلح باطنه وتنقى سرائره.

١- أنظر تفسير الفخر الرازى ٢٥/ ١٤٦.

camscanner بـ ضوئيا حة

المبحث الثانى

وصايا تصلح الباطن

الوصية الأولى:

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.(١)

نَعَمْ، التوحيد: الدعوة إليه والتنشئة عليه وترسيخه فى النفس، فحقيقة التوحيد هى التى قامت عليها الأكوان، ولولاها لما استقرت سماء ولا أرض ولا استمر عمران، وبها دون غيرها يرحم الله الإنسان.

فإذا استقرت هذه الحقيقة فى النفس وتحقق العبد بها علم أن الله وحده هو الحقيق بالتوجه إليه، فسلم من وساوس الشيطان وتحصن منه، وعاش سعيداً مرضيا، لا يسأل إلا الله، ولا يخشى إلا الله، ولا يحب إلا الله، ولا يعمل إلا لله، فيلج باب السعادات ويرتع فى مراتع القربات، كبير النفس قوى العزيمة، لا يلوى على شىء من الباطل والتفاهات فأعظم بخلق يكسبه التحقق بكلمة التوحيد نفس الإنسان!

١- سورة لقمان الآية ١٣.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولذا قدم لقمان عليه السلام هذا الأصل على ما عداه من أصول التربية لأنه الأساس الأول الذى يصحح ما عداه من أسس التربية فإذا صحت العقيدة صح الخلق وإذا ساءت ساء.

نادى لقمان ولده واعظا إياه (يا بنى) تصغير إشفاق ومحبة لا تصغير تحقير.

ناداه بأسلوب التحنن والتعطف تذكيرا له بتلك العلاقة الحميمة التى تكون بين الوالد وولده والمفعمة بالصدق والإخلاص، وتأليفا لقلبه قبل إلقاء الوعظ المثقل بالتكاليف على سمعه وهذا يعلم الآباء أن إتيان النفس من حيث تالف أنفع من إتيانها من حيث تكره، والدخول عليها من باب المودة خير من اقتحامها بالعنف والقهر، والسياسة والخلق أنجع للسمع والطاعة والاهتداء.

يقول ابن خلدون: (من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمله على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقا، وفسدت معانى الإنسانية له من حيث الاجتماع والتمدن وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيا على غيره فى ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها فارتكس وعاد فى أسفل السافلين).[1]

١- تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ٢/ ١٠٤٢- ١٠٤٣ دار الكتاب اللبنانى.

camscanner ممسوحة ضوئيا بـ

(لا تشرك بالله) ومن وقف على (لا تشرك) جعل (بالله) قسما.[1]

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ لا تدل على أن ابنه كان مشركا وإن قال به الجمهور على ما صرح به الطاهر بن عاشور إذ قال (وقد قال جمهور المفسرين: إن ابن لقمان كان مشركا، فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده، فإن الوعظ زجر مقترن بتخويف قال تعالى:

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾[2]

ويعرف المزجور عنه بمتعلق فعل الموعظة، فتعين أن الزجر هنا عن الإشراك بالله).[3]

قلت: بل ليس بمتعين فيما أرى لأن الوعظ وإن كان فيه زجر وتخويف فلا يلزم منه أن المخاطب واقع فى المزجور عنه، ولو كان كما قال لكان فى الخطاب شيىء ينبىء عنه، ألم تر إلى دعوة إبراهيم:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن

١- انظر تفسير البيضاوى ٢/٢٢٨.
٢- سورة النساء بعض الآية ٦٣.
٣- التحرير والتنوير ٢١/ ١٥٤.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾[1] فكلام إبراهيم عليه السلام صريح في أنه يدعو مشركا أما في كلام لقمان فلا، والنهي عن الشرك ليس دليلا على وجوده فقد نهى عنه أبو الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾[2] ونهى عنه النبي ﷺ قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓ﴾.[3]

وقال عز وجل مخاطبا إياه ﷺ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[4].

فيصح أن يكون ابن لقمان غير مشرك، نبت على الإيمان، ونهيه عن الشرك دعوة إلى الثبات والرسوخ على عقيدة التوحيد، والنفور من الشرك وأهله.

فبالتوحيد يتحرر المرء من إسار العبودية لغير الله إنسا كان أو جنا أو مالا أو شهوة أو حظا من حظوظ النفس فلا سلطان إلا لله ويبرز لقمان علة نهيه عن الشرك بقوله ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

وقال بعضهم إن هذه الجملة من كلام الله تعالى أراد بها تأكيد كلام لقمان.

والظاهر أنها من كلام لقمان، ويدل له ما روى عن عبد الله

١- سورة مريم الآيات ٤٢- ٤٥.
٢- سورة الحج بضع الآية ٢٦.
٣- سورة الرعد بعض الآية ٣٦.
٤- سورة الأنعام بعض الآية ١٤.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم﴾[1] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.[2]

وهى علة مؤكدة للنهى السابق وتتضمن عدة مؤكدات هى إيرادها جملة اسمية لتفيد الدوام والاستمرار وتصديرها بإنّ وتضمينها اللام المزحلقة، مع وصف الشرك بأقبح الصفات وهو الظلم العظيم، ومن وقف على قوله (لا تشرك) أضاف مؤكدا آخر هو القسم، وجمع لقمان هذه المؤكدات ليعمق فى نفس ولده وفى كل نفس القناعة ببطلان الشرك وقبحه فالناصح والد وفوق ذلك مؤمن حكيم ومثله لا يريد من وراء نصحه قطعا إلا الفلاح لولده فى الدنيا والآخرة.

والشرك ظلم لأنه تسوية بين الخالق والمخلوق، بين من لا نعمة إلا هى منه ومن لا نعمة منه ألبتة.

ظلم للنفس حينما يحمّلها صاحبها تبعة هذا الجرم الذى لا يغتفر فيحيا شريداً تائها يتخبط فى ظلمات الكفر فيفسد دنياه وأخراه.

ظلم لأنه أساس كل ظلم وجماع كل ظلم.

ظلم لأن عقابه فى الدنيا قد يعم فيشمل غير المشرك الذى

١- سورة الأنعام بعض الآية ٨٢.

٢- صحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة لقمان ٦/١٤٣-١٤٤، دار إحياء التراث العربى.

camscanner بـ ضوئية حة

بعض بني المشركين قال تعالى:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾(١).

ظلم لأنه سر كل فساد يقع بالأرض قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾.(٢)

ومن أجل كل هذا وصف بالعظم.

ولا شك أن لقمان لم يلق إلى ولده هذه المؤكدات دون بينة وتبيان،أو دليل وبرهان يقطع بحقيتها،فالحقائق لا ترسخ بمجرد العواطف أو كثرة المؤكدات دون نظر العقل وإعماله أولا وتدبره وإذعانه، وحرى بحكمة لقمان أن تظهر فى مثل هذه المواطن فيسوق لولده ما به يقتنع من الأدلة والبراهين والمواعظ.

فانظر إلى هذا الحكيم كيف عمد إلى عمود الوصايا وملاكها فألقاها على سمعه أولا ليرسخها فى ذهنه وليؤذنه بأن استقامة الحياة منوطة بالاستقامة على عقيدة التوحيد.

١- سورة الأنفال بعض الآية ٢٥.

٢- سورة الروم الآيات من ٤٠-٤٢.

والحرص على عقيدة التوحيد وترسيخها لا يختص بلقمان وحده بل هو دأب الأنبياء والصالحين مع أبنائهم خاصة ومع الناس عامة.

فذلك إبراهيم ويعقوب عليهما السلام يوصيان بها أولادهما قال تعالى:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.(١)

وانظر إلى يعقوب عليه السلام وقد جمع أولاده حين أحس بدنو الرحيل وقرب الساعة ليطمئن على دينهم رغم أنهم قد شبوا فى رياض بيت النبوة على عقيدة التوحيد وسلامة الدين، ورغم أنهم قد كبروا وصاروا أسباطا راسخين فى الدين ومنهم الأنبياء كيوسف عليه السلام

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾.(٢)

فأجابوا جميعا كأنما ألسنتهم قد اجتمعت فى لسان واحد بما يثلج صدر أبيهم ويريح فؤاده﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.(٢)

١- سورة البقرة الآية ١٣٢.

٢،٣- سورة البقرة الآية ١٣٣.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

والمربين في هذا درس وقدوة فلا يقولوا إن أبناءنا قد كبروا وأصبحوا مسئولين عن أنفسهم ثم يدعوا حبالهم على غواربهم بل عليهم أن يلحظوهم من وقت لآخر فدوامة الحياة عاتية ومفاتن الدنيا أسرة و الشيطان يتربص بالإنسان في كل مكان، فإذا انحرف أحدهم عن جادة الصواب رده ووضع قدمه على صراط الله المستقيم.

ثم إنه حين يبذل الوالد قصارى جهده في هداية ولده ويراه مصرا على ما هو عليه فليعلم أن ذلك قضاء الله فيه فهذا نوح عليه السلام جاهد ولده من أجل الإذعان لكلمة التوحيد، فيناديه في الساعة الفاصلة وكم ناداه من قبل لكنه سار في ذيل أمه وتبعها على الكفر بنوح عليه السلام.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.(١)

إنه آخر نداء وآخر رجاء يتجلى فيه عطف الأب وإشفاقه وتمنيه هداية ولده ونجاته من عذاب الدنيا والآخرة.

أي آمن يا ولدي واركب معنا فتنج من الغرق في الدنيا والعذاب في الآخرة ولا تكن مع الكافرين فتحرم الركوب معنا فتغرق ويكون مصيرك النار كما قال تعالى:

﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾(٢) لكن الولد وقد ختم الله على قلبه

١- سورة هود بعض الآية ٤٢.

٢- سورة نوح بعض الآية ٢٥.

camscanner ـ ممسوحة ضوئيا بـ

يجيب أباه ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾(١) أى يمنعنى من الماء فلا أغرق فينصحه أبوه نصيحة كانت هى الأخيرة ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۖ﴾(٢) أى لا رحمة اليوم للمؤمنين و لا عصمة إلا لهم ويهجم الموج الشرس ليقطع الحوار ويقطع الصلة بينهما إلى أبد الآبدين

﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾.(٣)

جاهد نوح عليه السلام ولده واستنفد كل السبل فى هدايته ولكنه أبى إلا الكفر. وإذن فليس إلا الرضا بقضاء الله.

فمن جاهد ولده فى إقامته على الدين وفى تأديبه ونصحه وإرشاده ثم لم يستجب فليكل أمره إلى الله لأن الهدى هداه.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.(٢)

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾.(٣)

١- سورة هود بعض الآية ٤٢.
٢- سورة آل عمران بعض الآية ٧٣.
٣- سورة الكهف بعض الآية ١٧.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوصية الثانية

الإحسان إلى الوالدين والبر بهما ولو كانا مشركين

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.(١)

ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد فى أثناء وصية لقمان تأكيدا لما فيها من النهى عن الإشراك، والمراد بالإنسان هنا عموم الجنس البشرى لا خصوص ابن لقمان عليه السلام.(٢)

والاستطراد أريد به الحض على الثبات على التوحيد وأنه ينبغى ألا يذعن الولد لهذه العقيدة لمجرد إرضاء والده وطاعة أمره، فلو قدر أن هذا الوالد مشرك، ودعاه إلى الشرك بعد أن

١- سورة لقمان الآيتان ١٤، ١٥.

٢- أنظر الكشاف ٢١٢/٣ وتفسير البيضاوى ٢٢٨/٢ وروح المعانى ٢١/ ٨٥ والمحرر الوجيز ٣٤٨/٤.

ة ضوئيا بـ CamScanner

تمكن الإيمان من قلبه فإنه يجب عليه ألا يطيعه وألا يسمع له فالحق ثابت لا يتغير بالأشخاص ولا بالأحوال.

وبهذا تكون الآيتان تقريرا للوصية الأولى وهى عدم الشرك بالله، ويكون الكلام فيهما مسندا إلى الله تعالى حقيقة لا مجازا وليس للقمان فيه شيء.

ولكن الإمام الطبرى نحا نحوا آخر فى توجيه اعتراض هاتين الآيتين قال رحمه الله: (فإن قال لنا قائل ما وجه اعتراض هذا الكلام بين الخبر عن وصيتى لقمان ابنه قيل: ذلك أيضا وإن كان خبرا من الله تعالى ذكره عن وصيته عباده به، وإنه إنما أوصى به لقمان ابنه فكان معنى الكلام:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ ولا تطع فى الشرك به والديك وصاحبهما فى الدنيا معروفا فإن الله وصى بهما فاستؤنف الكلام على وجه الخبر من الله، وفيه هذا المعنى فذلك وجه اعتراض ذلك بين الخبرين عن وصيته)[1] وهذا صريح فى أن هذه الوصية قد عناها لقمان وألقاها إلى ولده على النسق الذى وصى الله تعالى به عباده.

وقال الإمام الرازى: (لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها فى الصورة بين أنها غير ممتنعة بل هى واجبة لغير الله فى بعض الصور مثل خدمة الأبوين).[2]

١- جامع البيان للطبرى ٢١/٤٥ - ٤٦.
٢- تفسير الفخر الرازى ٢٥/ ١٤٧- ١٤٨.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وظاهر هذا الكلام ان هذه الوصية من وصايا لقمان تولى الله بيانها والتوصية بها.

وكلام صاحب البحر أظهر فى ذلك قال: (لما بيّن لقمان لابنه ان الشرك ظلم ونهاه عنه كان ذلك حثا على طاعة الله ثم بيّن ان الطاعة تكون للأبوين وبيّن السبب فى ذلك فهو من كلام لقمان بما وصى به ابنه أخبر الله عنه بذلك).[1]

ومن هذا نرى أن هؤلاء الأئمة الثلاثة يتجهون إلى أن هذه الوصية من وصايا لقمان تولى الله بيانها والتوصية بها والمعنى أن لقمان قص على ولده هذه الوصية كما أنزلها الله تعالى فى كتبه وعلى رسله فى جميع العهود واستغنى بقول الله فى هذا عن قوله وضعف ابن عطية هذا الاتجاه بأن الآيتين نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص ﷺ.[2]

والحق أن الذى نزل فى شأنه هو آية العنكبوت، ففيما رواه الترمذى بسنده عن سماك بن حرب قال: سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال: (أنزلت فىّ أربع آيات فذكر قصة، وقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾[3] قال

١- البحر المحيط ١٨٢/٧.

٢- أنظر المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤.

٣- سورة العنكبوت بعض الآية ٨.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبو عيسى: حديث حسن صحيح[1] واقتصر عليها الترمذى فى سبب نزول آية العنكبوت ولم يذكره ولا نحوه سببا لنزول آيتى لقمان وهو صريح فى بابه لا لبس فيه.

وفى رواية لمسلم فى فضائل سعد عن مصعب عن أبيه أيضا تفصيل لهذه الآيات الأربع إلا أنه ذكر أن الآية التى نزلت فى شأن سعد وأمه هى قوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ وان فيها قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.[2]

والناظر فى هذا يرى أنه أدخل آيتى لقمان فى آية العنكبوت فهل أراد بذلك أن الآيات فى الموضعين لقصة واحدة هى قصة إسلامه؟

لم أر أحداً من الشارحين: النووى والمباركفورى تعرض لبيان ذلك، غير أن الإمام السيوطى قال فى سبب نزول آية العنكبوت: أخرج الترمذى ومسلم وغيرهما، ثم ذكر رواية الترمذى ولم يذكر أيَّة رواية سببا لنزول آيتى لقمان،[3] وتقديمه الترمذى وذكر روايته وجمع مسلم معه دليل على أن الروايتين معا فى سبب نزول آية العنكبوت وأن العمدة فى ذلك رواية الترمذى لوضوحها.

١- سنن الترمذى / كتاب التفسير / تفسير سورة العنكبوت ٥/ ٣٤١- ٣٤٢.

٢- أنظر الحديث فى صحيح مسلم- كتاب الفضائل باب فضل سعد بن أبى وقاص ﷺ ١٨٧٧/٤.

٣- أنظر أسباب النزول للسيوطى سورة العنكبوت ٢٠٧- ٢٠٨ وسورة لقمان ٢١٢- ٢١٣ تحقيق قرنى أبو عميرة مكتبة نصر.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

ولا أرى فى ذلك ما يراه صاحب التحرير والتنوير قال: (لا يحسن ما ذهب إليه جمع من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى قضية إسلام سعد بن أبى وقاص وامتعاض أمه لعدم مناسبته السياق، ولأنه قد تقدم أن نظير هذه الآية فى سورة العنكبوت نزل فى ذلك وأنها المناسبة لسبب النزول فإنها أخليت عن الأوصاف التى فيها ترقيق على الأم بخلاف هذه، ولا وجه لنزول آيتين فى غرض واحد ووقت مختلف).[1]

وهذا هو الحق الذى تستريح إليه النفس لأن هاتين الآيتين وإن كانتا متصلتين بقضية التوحيد إلا أنه لا يمكن أن نهمل ما اشتملتا عليه من التوصية بالوالدين، كيف وقد بدأهما الله تعالى بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ فالوصية بالوالدين هى المقصود الأول وإن فلا يمكن أن نغض الطرف عنها أو نجعلها استطرادا، وقد دأب القرآن أن يقرن طاعة الوالدين بطاعة الله تعالى. كما فى قوله سبحانه:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[2].

وقوله: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.[3]

وقوله: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ

١- التحرير والتنوير ٢١/١٥٧.
٢- سورة البقرة بعض الآية ٨٣.
٣- سورة النساء بعض الآية ٣٦.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.(١)

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(٢)

فلما كان الكلام بين لقمان وولده فى الثبات على التوحيد ونفى الشرك ناسب أن يعقبه بالوصية المعهودة مضمنا إياها التأكيد على نفى الشرك نفيا قاطعا.

لكن لنا أن نسأل لماذا تولى الله تعالى التوصية بالوالدين وألقاها لقمان كما هى على مسامع ولده؟

قلت:

أولا: للإشارة إلى أن أمر الإحسان إلى الوالدين والبر بهما ليس من فرض الوالدين على الولد فإن ذلك ربما دعاه إلى الإهمال والتفريط. وإنما من فرض الله تعالى وشرعه فيجب اتباعه.

ثانيا: للتنويه إلى أن إرضاء الوالدين من أسباب رضا الله، وقد روى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ "رضا الرب من رضا الوالد وسخط الرب فى سخط الوالد"(٣).

ثالثا: مبالغة فى الموعظة بالإحسان إلى الوالدين فالبيان الإلهى لا شك أوفى وابلغ والمقام يقتضيه لبيان عظم حق الوالدين على الولد فأمر يتولاه الله بنفسه لابد أن له شأنا عظيما

١- سورة الأنعام بعض الآية ١٥١.

٢- سورة الإسراء بعض الآية ٢٣.

٣- سنن الترمذى – كتاب البر والصلة باب ما جاء من الفضل فى رضا الوالدين ٣١٠/٤.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عنده فوجب أن يكون كذلك عند الأبناء.

رابعا: لتكون الوصية عامة وشاملة كل ولد تجاه والديه فلا يظن أنها خاصة بابن لقمان وحده ولذا عبر بلفظ الإنسان وهو لفظ عام يدخل فيه ابن لقمان دخولا أوليا.

خامسا: صيانة لكرامة الوالد وحفظا لقدره وإبقاء لإجلاله وإكباره في نفس الولد، فلو أن لقمان تولى هذه التوصية لكان في ذلك إهدار لكرامته وذهاب لقدره واعتزازه فيبدو أمام ولده في مقام الذل والحاجة والاستعطاف وهو لا يليق بالوالد في حضرة ولده، فالذل إن كان من أحد لآخر فهو من الولد لوالده لا من الوالد لولده.

وقال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾.(١)

سادسا: لأن الآباء مفطورون على الشغف بالأبناء والشفقة بهم والعطف عليهم مما يدفعهم إلى بذل قصارى جهدهم في رعاية الأبناء وكفالتهم، وهذا جلى حتى في العجماوات لكن الأبناء لم يفطروا على مثل هذا نحو الآباء فإنهم إذا بلغوا الأشد وجرى في عروقهم دم الشباب اندفعوا إلى الحياة بكل ما فيها من طموحات وانشغلوا في تحقيقها ثم إلى الزوجات والذريات فينسون كثيراً ويغفلون كثيراً.

فلما أودع الله تعالى في قلوب الآباء من العواطف ما لم يودعه في قلوب الأبناء تولى سبحانه التوصية بالآباء، فكما

١- سورة الإسراء بعض الآية ٢٤.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تولى الأبناء بفطر الآباء على رعايتهم تولى الآباء بتوصية الأبناء بهم، وجعل رضاهم من رضاه، وحرم عقوقهم وعده من أكبر الكبائر بعد الإشراك بالله.

فقد روى أنه ﷺ قال: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول الله قال الإشراك بالله، وعقوق الوالدين..." الحديث.(١)

سابعا: للإشارة إلى عظم هذه الوصية وأن الإحسان إلى الوالدين والبر بهما عماد الرباط الأسرى وعاصم الأسرة من التفكك والضياع ومن ثم فهو مناط استمرارها وفلاحها وهو المؤشر بما ينطوى عليه من قوة أو ضعف إلى قوة المجتمع وتماسكه أو ضعفه وتفككه.

وذلك لأن الوشيجة بين الآباء والأبناء هى من أقوى الوشائح الأسرية على الإطلاق، ألم تر إلى قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾.(٢)

فيضرب المثل لشدة الساعة وعنفوانها ورهابتها بانفصام أقوى علاقة بين اثنين حين تذهل الأم عن رضيعها وما أدراك ما الطفل الرضيع فى عين أمه، إنه حبة قلبها وثمرة فؤادها وفلذة كبدها، ومع كل هذا تذهل عنه كأن لم تعرفه.

١- صحيح البخارى كتاب الأدب- باب عقوق الوالدين من الكبائر ٤/٨ وسنن الترمذى – كتاب البر والصلة باب ما جاء فى عقوق الوالدين ٣١٢/٤.

٢- سورة الحج بعض الآية الثانية.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

تلك الوشيجة التى إذا انفصمت عراها انفرط عقد الأسرة وضاع كل فرد منها فى شتات الفردية وتيه عدم الانتماء والولاء فيقدر التفاف الأبناء حول الآباء وبقدر رسوخ الأواصر بين الأبناء والآباء ترسخ كذلك الأواصر فيما بين الأبناء فهى علاقة تضفى جو التلاحم بين أفراد الأسرة وهو جو ضرورى حتمى لتلاحم المجتمع وتماسكه.

ومن أجل كل هذا تولى الله تعالى التوصية بالوالدين.

وإذن فمن الأدب اللازم فى تربية الولد تعريفه بحق الوالد وفضله عليه ومدى العناء والمكابدة فى تنشئته ورعايته حتى يستشعر عظم الواجب حينما يكبر تجاه والديه فكم يقدم الآباء للأبناء وكم ينفقون كل جهد وعافية وكل مرتخص وغال، ولا يضنون بشيىء يملكونه فى سبيل إسعاد أبنائهم حتى يصيروا رجالا أسوياء فلا أقل من أن يرد الولد شيئا من هذا الجميل إلى والديه بطاعتهما والإحسان إليهما والبر بهما وهو بذلك يكون قد أدى بعض ما عليه.

ويكفى أن يضع الولد نصب عينيه قوله تعالى:﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.(١)

١- سورة الإسراء بعض الآية ٢٣ والآية ٢٤ بتمامها.

camscanner بـ ضوئية حة

فقوله (عندك) أى لا ينبغى أن يكونا فى عهد الكبر إلا عندك فى بيتك وكنفك وفى عينيك وقلبك ثم إياك أن تظهر نوع تأفف منهما بإشارة أو كلمة أو حركة فإنه كبيرة عند الله، بل إن من الإحسان إليهما أن يتطلف الولد معهما فى الحديث ويسامرهما ويلاطفهما بقول كريم طيب ثم إن عليه أن يوطئ لهما كنفه وأن يتواضع لهما تواضعا نابعا من الرحمة لا من مأرب آخر ثم إنه ينبغى عليه أن يلهج لسانه بالدعاء لهما دعاء خالصا من قلبه فأى بيان أعظم تأثيراً من هذا البيان.

وفى آية لقمان التى معنا يوصى الله بالوالدين ويخص الأم بمزيد ذكر حين بين مكابدتها فى حمل الولد ومعاناتها فى وضعه وفطامه إشارة إلى اختصاصها بمزيد فضل مما يستتبع كمال الاعتناء بها ورعاية حقوقها.

قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أى ضعفا على ضعف فالإناث جنس ضعيف بطبيعته والحمل ضعف آخر يضاف إليهن فتضاعف الضعف عليهن.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أى فطامه وترك إرضاعه فى انقضاء عامين أى فى أول زمان انقضائهما.(١)

فالحمل والرضاعة حتى الفطام وما بعد الفطام حتى يعتمد على نفسه فى مأكل ومشرب وملبس وغيره أعباء ثقيلة تقع على عاتق الأم وهى مع ذلك راضية مسرورة بما تكابده، وتتمنى أن يكون

١- انظر روح المعانى ٢١/ ٨٦.

CamScanner

بة الدين وسيد الرجال إن كان ذكرا، أو ربة الصون والعفاف
والعرف والمؤدد إن كان أنثى.

فبأى شيئ يجازى الولد أمه على هذا؟

عن أبى هريرة ﷺ قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك).[1]

والولد مهما أحسن إلى أمه لا يوفى جزاءها.

وروى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبى ﷺ هل أديت حقها؟ قال: "لا ولا بركزة[2] واحدة "[3].

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ أن هى المفسرة لـ (وصينا) إذ فيه معنى القول دون حروفه.

وتقدم شكر الله على شكر الوالدين لأنه سبحانه مصدر كل نعمة فكل نعمة منبثقة من فيض يديه وإن أجراها بعد على أيدى العباد فوجب توجيه الشكر إليه أولا.

وقد مر بيان شكر الله أما شكر الوالدين فالعرفان بحقهما وطاعتهما والإحسان إليهما ورعايتهما.

١- صحيح مسلم/ كتاب البر والصلة والأدب، باب بر الوالدين وانهما أحق به ٤/ ١٩٧٤ وسنن الترمذى/ كتاب البر والصلة باب ما جاء فى بر الوالدين ٤/ ٣٠٩.

٢- المراد بالركزة: الطلقة.

٣- كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة للحافظ نور الدين على بن ابى بكر الهيثمى ٢/ ٣٧١ مؤسسة الرسالة.

ة ضوئيا بـ CamScanner

وقرن شكر الوالدين بشكر الله كما قرنت طاعة الوالدين بطاعة الله وفى الحديث عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله".(١)

وجه الخطابى هذا الاقتران بقوله: (هذا يتأول على وجهين أحدهما أن من كان فى طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله تعالى وترك الشكر له.

والوجه الآخر أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس ويكفر معروفهم لاتصال أحد الأمرين بالآخر).(٢)

وطاعة الله قطعا مقدمة على طاعة الوالدين إلا أنه تجب طاعة الوالدين إذا تعارضت مع التطوع بل إذا تعارضت مع أداء فرض وقته موسع ويدل لذلك ما رواه أبو هريرة عن النبىﷺ (لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج، وكان جريج رجلا عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلى فقالت: يا جريج، فقال يا رب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر

١- سنن الترمذى، كتاب البر والصلة - باب ما جاء فى الشكر لمن أحسن إليك ٣٣٩/٤.
٢- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ٦٢/٦.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجا وعبادته، وكانت امرأة بغى يُتَمثل بحسنها، فقالت: ان شئتم لأفتننه لكم قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعيا كان يأوى إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قال: هو من جريج فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟

قالوا زنيت بهذه البغى فولدت منك، فقال: اين الصبى؟ فجاؤا به فقال: دعونى حتى أصلى، فصلى فلما انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه وقال: يا غلام من ابوك؟ قال: فلان الراعى، قال: فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا: نبنى لك صومعتك من ذهب، قال: لا أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا...) الحديث.(١)

وفى رواية له أيضا: "ولو دعت عليه أن يفتن لفتن".(٢)

قال النووى فى شرح الحديث: (قال العلماء: هذا دليل على أنه كان الصواب فى حقه إجابتها لأنه كان فى صلاة نفل، والاستمرار فيها تطوع لا واجب، وإجابة الأم وبرها واجب، وعقوقها حرام، وكان يمكن أن يخفف الصلاة ويجيبها ثم يعود لصلاته، فلعله خشى أنها تدعوه إلى مفارقة صومعته والعود إلى الدنيا ومتعلقاتها وحظوظها وتضعف عزمه فيما نواه وعاهد

١- صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها ٤/١٩٧٦ - ١٩٧٧.

٢- المرجع السابق.

عليه).[1]

وأياما يكن الأمر فلا عذر له والحديث بيّن فى الدلالة على أن طاعة الوالدين إذا تعارضت مع التطوع قدمت لأنها واجب والتطوع مندوب كما قال النووى.

قال ابن عطية (وجملة هذا الباب أن طاعة الوالدين لا تراعى فى ركوب كبيرة ولا فى ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما فى المباحات، وتستحسن فى ترك الطاعات الندب، ومنه أمر جهاد الكفاية، والإجابة للأم فى الصلاة مع إمكان الإعادة على أن هذا أقوى من الندب، لكنه يعلل بخوف هلكة عليها ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب، وخالف الحسن فى هذا الفصل فقال: إن منعته أمه من شهود العشاء الآخرة شفقة فلا يطعها.[2]

ومن المعلوم أن طاعة الوالدين فى معصية حرام قطعاً إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

ولذا عقب الله تعالى بالوالدين بهذا التحذير

﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

وذلك لأن هذه الرابطة لها تأثيرها وسلطانها بين الآباء والأبناء فيخشى أن يتسربل فيها الولد ويندفع مع والديه عصبية لهما حتى ولو دعياه إلى الشرك.

١- صحيح مسلم بشرح النووى ١٦/ ١٠٥.
٢- المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أى ما ليس لك به برهان قاطع يثبت إلهيته لأنه يستحيل أن يتعلق البرهان القاطع إلا بالإله الحق وهو الله سبحانه.

وقال الزمخشرى (أراد بنفى العلم به نفيه أى لا تشرك بى ما ليس بشيىء، يريد الأصنام. كقوله تعالى ﴿وَمَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾. (١)(٢)

وجعله الطيبى بناء على ما قاله الزمخشرى من باب نفى الشيىء بنفى لازمه إذ العلم تابع للمعلوم فإذا انتفى وجوده انتفى العلم به، فانتفاء العلم لانتفاء الوجود.

ولصاحب الكشف توجيه آخر ينتقد فيه الطيبى إذ يقول: أراد أنه بولغ فى نفى الشريك حتى جعل كلا شىء ثم بولغ حتى ما لا يصح أن يتعلق به علم.

والمعدوم يصح أن يعلم، ويصح أن يقال إنه شيىء فأدخل فى سلك المجهول مطلقا، وليس من قبيل نفى العلم لنفى وجوده، قال وهو تقرير حسن وفيه مبالغة عظيمة. (٣)

ويضرب المثل فى الثبات على التوحيد وعدم الانصياع لإلحاح الأم فى العودة إلى الشرك سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه فلقد مر أنها أشرفت على الهلاك من أجل أن يرجع إلى دين آبائه فلم يعبأ بها

١- سورة العنكبوت بعض الآية ٤٢.
٢- الكشاف ٣/ ٢١٢.
٣- انظر روح المعانى ٢١/ ٨٧.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يلق لها بالا.

وليس الشرك مندوحة للقطيعة والإهمال بل على الولد أن يتعهدهما بحسن الخلق والخدمة وإن يكفلهما، ولذا عقب الله تعالى بقوله ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وهذه الجملة تدفع مظنة معاداة الولد لهما بعد هذا الخلاف الجوهرى.

وقوله ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أى لا مصاحبة بينهما بالمعروف بعد الدنيا ولا مصاحبة أصلا بعدها لا بالمعروف ولا بغيره فلا ينفع الولد والده حين يموت على الشرك.

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.(١)

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ من المؤمنين فسبيلهم هى سبيل النجاة والفلاح، وهى جملة مؤكدة لعدم اتباع الوالدين فى دعوتهما إلى الشرك.

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فمآل الجميع إلىّ وسيجزى كل بعمله.

وبعد أن تولى الله تعالى توصية الولد بوالده عاد الحديث إلى لقمان ليكمل وصاياه إلى ابنه.

١- سورة الطور بعض الآية ٢١.

ة ضوئيا بـ CamScanner

الوصية الثالثة: الاستقامة

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾.(١)

وصية مضمونها الدعوة إلى الاستقامة فإذا عرف العبد ربه واستقر الإيمان فى قلبه لزمه أن يستقيم على هذا الدين فلا تزعزعه الفتن ولا تزلزله الخطوب ولا تلعب به الأهواء، والاستقامة خلق معناه الثبات على الدين والسير على نهج الله وشرعه ويتحصل من معرفة الله تعالى والخوف منه.

ولأنه خلق جامع كان حريا أن يعقب الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله قال تعالى:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾.(٢)

وقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.(٣)

ولما جاء سفيان بن عبد الله الثقفى يسأل النبى ﷺ عن وصية جامعة قائلا: قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك، وفى رواية غيرك أجابه ﷺ بقوله "قل آمنت بالله فاستقم".(٤)

١- سورة لقمان الآية ١٦.
٢- سورة فصلت بعض الآية ٦.
٣- سورة فصلت بعض الآية ٣٠.
٤- صحيح مسلم كتاب الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام ٦٥/١.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو المطلب الذى يسأله المؤمنون فى كل صلاة بعد إقرارهم بتوحيد الله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.(١)

ولذلك حرص لقمان أن ينهج مع ولده هذا المنهج ولكن بدل أن يدعوه إلى الاستقامة النظرية كأن يقول له استقم على هذا وكفى فتح عينيه على مثال عملى يرسخ خلق الاستقامة فى نفسه، والولد أحوج فى تعليمه وإفهامه إلى ضرب المثل وتجسيد المعانى فيعيد على أسماعه نداء الصلة والقربى والمودة.

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا﴾ أى إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان، أو أنه ضمير القصة.

﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾.

ومثقال الشيىء قليلا أو كثيراً وزنه الذى يثقل به.

والخردل: جمع خردلة (وهو نبت له جذر وساق قائمة متفرعة اسطوانية أوراقها كبيرة يخرج أزهاراً صغيرة صفرا، سنبلته تتحول إلى قرون دقيقة مربعة الزوايا تخرج بذورا دقيقة تسمى الخردل أيضا ولب تلك البذور شديدة الحرارة يلدغ اللسان والجلد، وهى سريعة التفتق ينفتق عنها قشرها بدقه، أو إذا بلت بمائع، فتستعمل فى الأدوية ضمادات على المواضع التى فيها التهاب داخلى).(٢)

ومثقال حبة الخردل مثل فى تناهى الشيىء فى الصغر والدقة.

١- سورة الفاتحة الآيتان ٥،٦.
٢- التحرير والتنوير ٢١/ ١٦٣.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض﴾ اى فتكن مع كونها فى أقصى غايات الصغر والقماءة فى أخفى مكان وأحرزه.

فتكن فى صخرة: والصخور من طبيعتها الصلادة، وقد تابى على المعاول أن تشقها أو تكسرها فالخردلة إذا كانت فى جوفها فهى فى حجاب مكنون لا يعلم أحد من الخلائق عنها شيئا ولا يقدر على استخراجها.

والصخرة من جنس الجبال، والجبال خلق عظيم هائل له خصوصيته فى الذكر عند الكلام عن الأجرام العظام. كما جاء فى آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾(١)

وقوله ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾.(٢)

وقوله:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ.....﴾(٣) الآية.

فكأن المعنى: فتكن فى صخرة من صخور الجبال الرواسى (أو فى السماوات) الهائلة الاتساع، الشاسعة الأبعاد، الكثيرة

١- سورة الأحزاب بعض الآية ٧٢.
٢- سورة مريم بعض الآية ٩٠.
٣- سورة الحج بعض الآية ١٨.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأجرام والتى لا يعلم حدودها ولا مداها إلا الله.

(أو فى الأرض) فى طبقاتها وبحارها وأنهارها متوغل فى أعماقها (يأت بها الله) لأنه سبحانه عالم بها وقادر على استخراجها.

(إن الله لطيف) يصل بعلمه إلى كل خفى (خبير) عالم بكنه يدبر أمره ويصرفه كيف يشاء.

ولعلك تسأل فى سر الجمع بين هذه الأجرام وترتيبها على هذا النحو.

قال صاحب البحر (وبدأ له بما يتعلق به أولا وهو كينونة الشىء فى صخرة وهو ما صلب من الحجر وعسر إخراجه منها، ثم أتبعه بالعالم العلوى وهو أغرب للسامع، ثم أتبعه بما يكون مقر الأشياء للمشاهد وهو الأرض).[1]

وفى روح المعانى (وقيل إن خفاء الشىء وصعوبة نيله بطرق: بغاية صغره، وببعده عن الرائى، وبكونه فى ظلمة، وباحتجابه فمثقال حبة من خردل إشارة إلى غاية الصغر، (وفى صخرة) إشارة إلى الحجاب، و (فى السموات) إشارة إلى البعد و(فى الأرض) إشارة إلى الظلمة فإن جوف الأرض اشد الأماكن ظلمة).[2]

وهى اجتهادات حسنة، ولا بأس أن نقول: مَرَّ فى الحديث عن صنعة لقمان أنه كان يرعى الغنم، وراعى الغنم يأوى غالبا إلى

١- البحر المحيط ١٨٣/٧.
٢- روح المعانى ٢١/ ٨٨.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لجبال ويستكن بها من حر أو برد أو مطر أو غيره فلعله كان
بوجه النصح إلى ولده وهو فى أكنان الجبال فكانت صخورها
أقرب مشهود من الأجرام العظام ثم نظر إلى الآفاق التى تعتلى
فهم الجبال فرأى السماوات فكانت هى المشهود الثانى ثم نظر
إلى الأفق البعيد الذى يلتقى بسطح الأرض محيطا بها فيما هو
الظاهر فذكر اتساع الأرض ورحابتها وأجوافها وبحارها
وأنهارها فكانت الأرض هى المشهود الثالث.

وقد علمنا أنه غالبا ما تجمع الآيات بين هذه الثلاث فى مقام
استعراض عظمة الله وقدرته وعلمه ووحدانيته فأراد لقمان أن
يجوب بولده بين هذه الآيات الباهرة ليحرك فيه عوامل التطلع
والنظر فى ملكوت الله لأن ذلك يرسخ الإيمان ويجدده.

ثم هو يعرفه بهذه الطريقة بكمال علم الله تعالى وقدرته، وأنه
لا يند عن علمه وقدرته وتدبيره شيىء مهما دق واستكن أو ذهب
وغاب، أو اختلط وضاع فى أعماق الصخر أو فى أرجاء
السماوات أو فى أجواف الأرض ومن هنا فلا الحسنة تخفى ولا
السيئة مهما تكن الحسنة ذرة خير ومهما تكن السيئة ذرة شر.

إنها وصية ترسخ فى الولد خشية الله تعالى ومراقبته فى كل
شاردة وواردة، فى كل خلجة من خلجاته وحركة من حركاته
فضلا عن أنها توقظ فيه فضيلة النظر فى آيات الله المنصوبة
فى الآفاق فيشب على تقوى الله ومرضاته وهو يوقن أن الله
تعالى كاشف سره، مطلع على خباياه بين حناياه،بل على هواجسه
وهى تسرى فى دماه،فإذا راودته نفس إلى هوى أو استدرجه

CamScanner حة ضوئيا بـ

شيطان إلى معصية أبصر عين الله ترقبه وخشيته تمنعه وعقابه يزجره فارعوى عن قصده واستعاذ بالله وأقبل عليه يرجو عفوه ورضاه.

ومن البين أن تنشئة الولد على الاستقامة سبب أصيل فى نجاحه وفلاحه فى الدنيا والآخرة ومن ثم سبب أصيل فى المجتمع وطهارته.

CamScanner ة ضوئيا بـ

الوصية الرابعة: إقامة الصلاة

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.(١)

لما دعا لقمان ولده إلى الاستقامة دعاه إلى الترجمة العملية لها وذلك فى أمور أولها إقامة الصلاة.

نعم إقامة الصلاة، فالصلاة هى الميزان الذى يصحح سير الإنسان وسلوكه إذ يعرض الجهاز الإنسانى على خالقه خمس مرات كل يوم لإصلاح عطبه وإقصاء فساده وذلك إن صدق المصلى وأخلص فى صلاته.

هى المعراج الذى يرقى به العبد إلى ربه بذله وخضوعه ليحوز العز بشرف القرب.

هى أول الفرائض تشريعا وآخرها نقضا ورفعا.

فعن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ "لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة".(٢)

وهى أول الفرائض التى تجعل المسلم يجود بالقربات ويسارع إلى الخيرات قال تعالى:

١- سورة لقمان بعض الآية ١٧.

٢- الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان للأمير علاء الدين على بن بلبان الفارسى تحقيق شعيب الأرناؤوط – كتاب التاريخ باب إخباره ﷺ عما يكون فى أمته من الفتن والحوادث ١٥/ ١١١ مؤسسة الرسالة.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ (١) الآيات.

هى أعظم الفرائض أثراً فى ضبط النفس وتعليم الالتزام وتحمل المسئولية، وأداء الأمانة والوفاء بالعهد والحفاظ على الوقت، والوقوف عند حدود الله وشرعه.

ثم فى تنشئة المسلم على الشموخ وعدم الخضوع والذل إلا لله وحده، وكذا على التواضع فيما بينه وبين إخوانه المؤمنين وعلى المساواة بينهم وأنه لا فضل لأحد عند الله بمنصب أو جاه أو مال أو عيال أو غير ذلك إلا بالتقوى.

وللصلاة سلطان على من يخلص فيها كأنها كائن حي له أمر ونهى ولذلك قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(٢) وقال حكاية عن قول قوم شعيب له:

﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا﴾(٣)

نعم إن لها أمرا ونهيا وهيمنة، فلا يتصور مؤمن صدق فى صلاته وأخلص وخشع فيها قلبه لله أن يكون غاشا أو ظالما أو كذابا أو فاسقا أو مفرطا فى حق من الحقوق إذ كيف يكون مع الله فى الصلاة، وجهه قبالة وجه مولاه، يقر له بالخضوع والولاء

١- سورة المعارج الآيات من ١٩-٢٣.
٢- سورة العنكبوت بعض الآية ٤٥.
٣- سورة هود بعض الآية ٨٧.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والطاعة والانتماء ثم ينصرف من صلاته ليعصاه فإذا رأينا مصليا لا تأمره صلاته ولا تنهاه فلنوقن أنه ساه فيها ولاه غير مؤد لحقوقها ولا قائم بموجباتها.

ولما كانت الصلاة هى الركن الأصيل فى العبادة شرعت فى السماء بلا واسطة بين الله تعالى ورسوله ﷺ وذلك حين عرج به إلى السماوات العلى.

وهى الركن الذى لا يسقط بحال لا فى سفر ولا فى مرض ولا فى خوف ولا عند فقد الماء وذلك لأنها قوام العبادات وعمود الدين وترجمان الإسلام أن صلحت صلح بعدها وإن فسدت فسد ما بعدها.

وهى أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله يوم القيامة.

فعن أبى هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر ..." الحديث.(١)

وهى آخر ما وصى به النبى ﷺ وهو يجود بأنفاسه الطاهرة فعن أنس قال: "كان آخر وصية رسول الله ﷺ وهو يغرغر بها فى صدره وما كان يفيض بها لسانه: الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم".(٢)

١- رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب / سنن الترمذى كتاب الصلاة ما جاء أن أول ما يحاسب العبد يوم القيامة الصلاة ٢/ ٢٦٩-٢٧٠.

٢- الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان - كتاب التاريخ باب مرض النبى ﷺ ١٤/ ٥٧١.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

وأمر الشارع الطفل بها وهو ابن سبع سنين وأن يضرب على تركها لعشر إذا بلغها ولم يصل.

ففيما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم فى المضاجع".(١)

ولم يصرح الشارع بنحو هذا فى العبادات الأخرى فدل ذلك على مكانتها المكينة فى إصلاح الفرد والمجتمع.

من أجل هذا حرص لقمان عليه السلام فى تأصيل هذا الركن الركين فى نفس ولده فجعله أول التراجم العملية للاستقامة على هذا الدين.

١- رواه أبو داود فى سننه واللفظ له / كتاب الصلاة باب متى يؤمر الغلام بالصلاة ١/ ١٣٠ دار الريان للتراث والترمذى فى سننه وقال حديث حسن غريب سنن الترمذى - أبواب الصلاة - باب ما جاء متى يؤمر الصبى بالصلاة ٢/ ٢٥٩.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

الوصية الخامسة:

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.(١)

لما كانت الصلاة تأمر صاحبها وتنهاه فإذا امتثل لأمرها ونهيها استطاع أن يملك زمام نفسه وأن يسلس قيادها، وحينئذ يكون حريا أن يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر عقب لقمان بهذه الوصية.

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ركن الصيانة لهذا الدين وبقائه، ومن ثم بقاء الأمة متماسكة قوية.

وقد دعا الله تعالى الناس إلى إقامته ووصف القائمين عليه بانهم هم المفلحون فقال تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.(٢)

وتمدح سبحانه أمة الإسلام بالخيرية على الأمم جميعا لأنها تحافظ على هذا الركن فقال جل وعلا:

١- سورة لقمان بعض الآية ١٧.
٢- سورة آل عمران الآية ١٠٤.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.(١)

ونحا باللائمة على الكافرين من بنى إسرائيل ولعنهم على مر الدهور فى كتابه وعلى ألسنة رسله لاعتدائهم على حرمات الله تعالى وعلى أنبيائه ولإهمالهم هذا الركن فقال سبحانه:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.(٢)

وتوعد النبى ﷺ من يهمل هذا الركن فقال فيما يرويه حذيفة بن اليمان عنه ﷺ: "والذى نفسى بيدى لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم".(٣)

وعن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر".(٤)

١- سورة آل عمران الآية ١١٠.
٢- سورة المائدة الآيتان ٧٨، ٧٩.
٣- سنن الترمذى – كتاب الفتن باب ما جاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٤/ ٤٦٨.
٤- المصدر السابق كتاب البر والصلة باب ما جاء فى رحمة الصبيان ٤/٣٢٢.

CamScanner ضوئية بـ

على تفاح الأمة لابد من تحقيق هذا الركن والضرب على
يد المفسدين، والله تعالى يدفع المفسدين بالمصلحين
والفاجرين بالمتقين.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.(١)

وضرب النبى ﷺ مثلا لنعمة إقامة هذا الركن وبؤس إهماله.

ففيما رواه البخارى بسنده عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا".(٢)

ثم ويل لمن يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المنكر ويأتيه متظاهرا بينه وبين الناس بالامتثال للدين. والدين منه براء.

إنه بذلك قد نسى نفسه ومن نسى نفسه لا خير له فى غيره ولا يكون حينئذ من العقلاء قال تعالى مخاطبا بنى إسرائيل:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.(٣)

١- سورة البقرة بعض الآية ٢٥١.
٢- صحيح البخارى كتاب الشركة باب هل يقرع فى القسمة والاستهام فيه ٣/ ١٨٢.
٣- سورة البقرة الآية ٤٤.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى، وقد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه".(١)

ولما كان هذا الركن من الخطورة بمكان ويتعلق به صلاح الفرد والأمة وبقاء الدين حرص لقمان على أن يوصى به ولده ويستلزم هذه الوصية أن يكون الولد فقيها فى دينه عالما بالمعروف وعالما بالمنكر، وأن يكون عاملا بما علم قدوة فيما يدعو إليه.

ومعناه أن لقمان يقول لولده: احرص على العلم وتفقه فى دينك لكى تعرف حلاله من حرامه ومعروفه من منكره فإذا عرفت ذلك فاعمل به أنت أولا، وكن قدوة فيه، فإذا استقمت على هذا فأمر بالمعروف وانه عن المنكر فإن ذلك أدعى أن يسمع منك وأن تطاع فيما تدعو إليه، تلك مقدمات ضرورية لهذه الوصية.

وإذا درج الولد على خلق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نشأ قوى الشخصية غيورا على دينه غير هياب من بطش سلطان جائر، يقول الحق ولو كان مرا.

١- صحيح مسلم – كتاب الزهد والرقائق باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله ٤/ ٢١٩١.

camscanner

الوصية السادسة

الصبر على المصيبة

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.(١)

لما كان الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر يتعرض حتما لأذى الناس لأنه يصادم هواهم ويعاند رغباتهم وعاداتهم التى درجوا عليها أعقب بأمره بالصبر على ما يصيبه من جراء ذلك، فلا يحمله الأذى على التراجع أو السكوت عن قول الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

قال الإمام الطبرى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ يقول: واصبر على ما أصابك من الناس فى ذات الله إذا أنت أمرتهم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر، ولا يصدنك عن ذلك ما نالك منهم.(٢)

وإذا كانت هذه الوصية تشير بادىء ذى بدء إلى ما قاله الإمام إلا أنها لا تقتصر عليه بل هى عامة فى كل أمر يحتاج إلى الصبر فـ (أصاب) يستعمل فى الخير والشر على السواء.

قال سبحانه:﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾.(٣)

١- سورة لقمان بعض الآية ١٧.
٢- جامع البيان ٢١/ ٤٧.
٣- سورة النساء بعض الآية ٧٨.

حة ضوئيا بـ CamScanner

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾.(١)

والشر والخير كلاهما ابتلاء يحتاج إلى صبر، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.(٢)

ومن الناس من يفتن بالخير قال تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.(٣)

ومنهم من يفتن بالشر قال سبحانه:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾.(٤)

وقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾.(٥)

وقال عز وجل:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.(٦)

١- سورة النساء بعض الآية ٧٩.
٢- سورة الأنبياء بعض الآية ٣٥.
٣- سورة العلق الآيتان ٦، ٧.
٤- سورة الحج الآية ١١.
٥- سورة الروم الآية ٣٦.
٦- سورة هود الآية ٩.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن ثم فقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ أى من خير أو شر ويؤيده أن الصبر له متعلقات كثيرة من أوامر الله تعالى ونواهيه ونوازل الدهر ونوائبه وغير ذلك.

فالتزام أوامر الله تعالى من الطاعات والعبادات وأعمال الخير يحتاج إلى صبر.

والتزام نواهى الله تعالى من التزام حدود الله وعدم الاقتراب من المعاصى والمحرمات يحتاج إلى صبر.

وسعة الرزق وبسطة العيش وإغداق النعم يحتاج إلى صبر وضيق العيش وقلة الأرزاق وشدة الحاجة يحتاج إلى صبر ونوازل الدهر ونوائبه من المرض وهلاك الحرث والنسل ونحوه يحتاج إلى صبر، والجهاد ومنازلة الأعداء فى ساحات الحروب يحتاج إلى صبر ومكر الغير وتدبيره المكائد، وسوء أخلاقه يحتاج إلى صبر إلى غير ذلك من المتعلقات وجعله الإمام الغزالى ضربين ثم فرع منهما فروعا كثيرة قال:

(أعلم أن الصبر ضربان: أحدهما ضرب بدنى كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها، وهو إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها، وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة، وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع.

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبراً

ة ضوئيا بـ CamScanner

على شهوة البطن والفرج سمى عفة، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر، فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرهما، وإن كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر، وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن، وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ويضاده التذمر، وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر، وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما.

وإن كان عن فضول العيش سمى زهداً، ويضاده الحرص.

وإن كان صبر على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ويضاده الشره. فأكثر أخلاق الإيمان داخل الصبر).[1]

فأنظر كيف جمع الصبر هذه المعانى، وكيف أنه ضرورة من ضرورات الإيمان، وكيف أنه يضبط النفس على طريق الله المستقيم.

لكن يبقى المنظور الأول للصبر هو الصبر على الشدائد والمصائب تلك التى يجزع الإنسان لها، ويضطرب فؤاده ويتزلزل بها فيحتاج إلى قوة تقره وتسكنه وتطمئنه. ألا وهى قوة الصبر.

١- احياء علوم الدين ٤/ ٦٦، ٦٧.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

ولا يعطاها الإنسان إلا إذا تعلق بالله، وسلم له وعلم أن الأمر كله راجع إليه، وأنه مالك الملك على الحقيقة. وأنه إذا حكم وقضى فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، وأن المصير إليه.

إذا عرف ذلك آمن بقضائه ورضى بحكمه فتجرع دواء الصبر لينزل على قلبه بردا وسلاما وطمأنينة وأمانا واحتسب على الله أجر صبره.

وإذا صبر المرء مضت الشدائد برمتها تتلاشى رويدا رويدا حتى ينمحى أثرها فيسلم من التبرم وآثاره. ويُكَفِّر الله بصبره سيئاته ويجزيه جزاء حسنا.

فعن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ "عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له".(١)

وعن أبى سعيد وأبى هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: "ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفّر به من سيئاته".(٢)

وكفى أن الصابرين يدخلون الجنة – بغير معاناة الحساب وعرض الكتاب والوقوف بين يدى الجبار فى الموقف العظيم.

١- صحيح مسلم – كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير ٤/ ٢٢٩٥.
٢- المصدر السابق كتاب البر والصلة والآداب باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ٤/ ١٩٩٣.

camscanner ـة ضوئيا بـ

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.(١) وليعلم المؤمن أن بلاءه على قدر إيمانه.

فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال قلت يا رسول الله: أى الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة".(٢)

وليعلم كذلك أن الله تعالى يعجل العقوبة لأحبابه فى الدنيا وأن ابتلاءه لهم دليل على أن الله يريد بهم خيراً لأنها تمحيص لهم فى الدنيا ورفع لدرجاتهم فى الآخرة.

فعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : "إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة".(٣)

وعنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضى ومن سخط فله السخط".(٤)

١- سورة الزمر بعض الآية ١٠.
٢- رواه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح سنن الترمذى - كتاب الزهد باب ما جاء فى الصبر على البلاء ٤/٦٠١-٦٠٢.
٣- المصدر السابق نفس الكتاب والباب ٤/ ٦٠١.
٤- المصدر السابق.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والنظر إلى حب الله للصابرين وعظم جزائه لهم، وإذن ألا يستحق هذا الخلق أن يكون المسلم حريا به حريصا عليه.

ثم ألا يكون جديرا بأن يوصى به لقمان عليه السلام ولده ليكون صلب العود لا تؤخره العقبات ولا تهزه النكبات ولا يتقاعس عن ركب الحياة، بل ينساب معه كما ينساب الماء في مجراه مسلما أمره لله مؤمنا بقضائه في نفسه وفيمن وما حوله، فكل شيء في هذا الكون عظم أو حقر لا يفلت من قضاء الله رضي لم أبى.

وبالرضا يرقى الإنسان في درجات الإيمان، وجزاؤه الرضوان وبالتبرم يهبط إيمانه إلى أضعف درجاته وربما وصل إلى الكفران والعياذ بالله، وجزاؤه إحباط العمل والخسران.

فما أجمل الصبر وما أكمل الرضا والتسليم.

ولا شك أن الصبر بكل ضروبه يحتاج إلى مجاهدة للنفس وعزيمة لكبحها وضبطها ولذا عقب لقمان بقوله:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

قال الراغب (العزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر يقال عزمت الأمر، وعزمت عليه، واعتزمت قال:﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1] ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[2] أي محافظة

١- سورة آل عمران بعض الآية ١٥٩.
٢- سورة طه بعض الآية ١١٥.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

على ما أمر به وعزيمة على القيام).[1]

والعزم مصدر أطلق فى الآية على اسم المفعول منه أى من معزوم الأمور، أى الأمور المعزومة، وهى التى تحتاج إلى عقد القلب على إمضاء الأمر وضبط النفس حتى لا تخرج عن معهودها والثبات على ذلك.

فأنعم بهذه من تنشئة، وأكرم بها من طريقة فى التربية تقيم العود وتصونه من عوادى الدهر وتوطن النفس على تقبل المكاره واقتحام العقبات.

وإذ ينتهى لقمان عليه السلام من الاعتناء بالأمور القلبية والصفات الباطنية التى ينبغى أن يتحلى بها ولده وكل ولد يشرع فى بيان الصفات الظاهرية التى لابد منها والتى تنم عن كمال الشخص واعتداله وذلك فى الوصايا التالية:

١- مفردات الراغب / عزم.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثالث: وصايا تتعلق الظاهر وهى الوصايا الثلاث الباقية

الوصية السابعة: التواضع

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾.(١)

لا شك أن إصلاح الظاهر مرتبط بإصلاح الباطن لما بينهما من صلة وثيقة، إذ الباطن ينضح على الظاهر ويتبدى فيه، والظاهر دليل الباطن.

ومن تحلى بما مضى من الصفات التى تصلح الباطن صلح ظاهره لا محالة ومن ثم لا يتكبر ولا يختال على غيره ولا يكون أبوح غير رزين إلا أنه قد تغلب عليه غفلة أو عادة درج عليها تمكنت منه تؤذى غيره وتذهب ببهائه ووقاره واحترام الناس له، والحركة الظاهرة للمؤمن لابد وأن تكون حركة إيمانية تدعو إلى الألفة والمحبة والاحترام، وليس فيها إيذاء لأحد، ولما وصى لقمان ولده بالاتزان عند المصائب وذلك بالصبر وعدم الجزع كان لابد وأن يوصيه بالاتزان عند العطاء والنعم فلا ينشغل بها عن شكر المنعم، ولا يتعاظم بها على الناس.

١- سورة لقمان الآية ١٨.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

قال تعالى:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(١) وليس هذا معناه ألا يفرح الإنسان ولا يحزن، فالله تعالى خلقه يحب النفع ويكره الضر، ويفرح بالنفع ويحزن بالضر.

لكن الذى ينبغى أن يعلمه أن النفع نعمة من الله فلا يطغيه الفرح عن شكر المنعم، وأن الضر من قضاء الله تمحيص له وأن الإيمان بالقدر من الإيمان بالله، فلا يطغيه الجزع وينسيه ذكر الله، والمرء على الحالين فى ابتلاء من الله قال تعالى:

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.(٢)

فأراد لقمان أن ينبه ولده أن المحظور على المؤمن طغيان الجزع الذى يتولد عنه الكفر والتبرم بقضاء الله، وطغيان الفرح الذى يتولد عنه الكبر والأشر والبطر فعقب بقوله (ولا تصعر..) إلخ وهذا خلق الصالحين يؤدبون به أولادهم لترتبط كل حركة من حركاتهم بالله ويعلموا أن كل أمر يصيبهم من خير أو شر إنما هو من الله وبتقديره فتتوجه قلوبهم إلى التعلق بالله المانح المانع، فتسلم النفس من الآثار الوخيمة التى تهلكها على كلتا الحالين.

١- سورة الحديد بعض الآية ٢٣.
٢- سورة الأنبياء بعض الآية ٣٥.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والكبر وإن كان نابعا من الباطن إلا أن له صورة كريهة تفسد مظهر الإنسان وتجعله منبوذا ممن حوله ومن المجتمع بأسره وهى تصعير الخد ومشى المرح فنهى لقمان ولده عن أن يبدو بهذا المظهر، وهذا يستلزم أن ينتهى صاحبه عما يعتقده فى نفسه من التعاظم الذى يجعله كذلك.

وهو أبلغ من أن يوصيه بعدم التخلق بالكبر ، لأن النهى عن لازم الشىء نهى عنه، فتضمن النهيين نهى واحد وهو إيجاز وقد يكون هذا السلوك الظاهرى غير ناشىء عن كبر بل عن عادة أو نحوها مما لا يقصد معه الكبر، فتناول النهى هذا المظهر المرذول سواء أكان ناشئا عن كبر وهو الغالب أو عن غيره.

والتواضع صفة جليلة يتحلى بها المؤمن، وكيف يعرف الكبر وهو يضع جبهته على موضع قدمه ساجداً لله، ويعلم أن صفة الكبر لا تليق إلا بالله وهو وحده الحقيق بها لأنه تعالى الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص، وهو المستغنى بذاته عما عداه وكل نعمة فهى منه، أما غيره فكله عيوب وافتقار، وما يستعلى به من جمال أو مال أو عيال أو جاه أو منصب إنما هو من عطاء الله ولو شاء لقطعه فى طرفة عين.

فما أجدر بالإنسان أن يتواضع.

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

رفعه الله".(١)

لذا حرص لقمان أن يوصى ابنه بالتواضع وأن يرسخه فى نفسه بنهيين عن هيئتى كبر مرذولتين يبدو فيهما المستكبر غالبا، وتذييل ينفر منهما.

أما النهى الأول فقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

قال الزمخشرى: (والصعر والصيد: داء يصيب البعير يلوى منه عنقه، والمعنى: أقبل على الناس بوجهك ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعل المتكبرون).(٢)

واختار لقمان هذا التعبير للتنفير من الكبر إذ جعل الإنسان وهو فى هذه الحالة كالبعير الذى أصابه داء الصعر فلوى عنقه، وأمال صفحة وجهه فهو يمشى معوجا على حالة غير سوية وهى صورة قبيحة مرذولة.

وهذه إشارة إلى أن الكبر إذا أصاب بنى آدم فهو داء وبيل ومرض كريه ينبغى الاستبراء منه.

وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ أى أن ما يصدر من المتكبر إنما يقصد به الناس ليتعاظم عليهم فيرضى غروره.

وأما النهى الثانى فقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

١- صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب استحباب العفو والتواضع ٤/ ٢٠٠١ وسنن الترمذى كتاب البر والصلة ٤/ ٣٧٦.
٢- تفسير الكشاف ٣/ ٢١٣.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرح كما قال الراغب شدة الفرح والتوسع فيه[1] ومن كان كذلك يطغيه الفرح فيمشى فى تبختر واختيال وزهو بالنفس ونفخة وقلة مبالاة بالناس وهى مشية ممقوته عند الله وعند الناس،أى ولا تمش فى الأرض بين الناس مشية البطر المختال الذى أطغاه الفرح والغرور بزهرة الدنيا.

وفى سورة الإسراء زيادة بيان وتصوير.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.[2]

أى أنك أيها المخلوق الضعيف لا تقدر مهما تعاظمت أن تخرق الأرض بقدمك حين تدب عليها وإن قوى دبيبك وتثاقلت مشيتك كبرا واختيالا، ولن تبلغ مهما تعاظمت مبلغ الجبال شهاقة وعلوا، وثقلا وضخامة، فعلام التكبر والتعالى فالزم التواضع فأنت من الأرض،من هذا التراب الذى تدوسه قدماك فترفّق بأصلك فعما قريب تعود إليه، وباعد بينك وبين الكبر كما باعد الله بين السماء والأرض، فالكبر يعمى القلب وينبت الحقد والكراهية ويقطع الوشائج، ويمحو التآلف بين الناس فيصيب المجتمع بخلل عظيم.

١- مفردات الراغب / مرح.
٢- سورة الإسراء الآية ٣٧.

camscanner بـ ضوئية صحة

والكبر صفة استأثر الله تعالى بها فلا يوصف بها غيره ولا ينبغي أن يدعيها أحد لنفسه.

ففيما رواه مسلم عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: الكبرياء ردائى والعظمة إزارى من نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم".(١)

والاستكبار نوعان:

أولهما: استكبار الدين وهو الذى يحجب صاحبه عن الإيمان بالله وكتبه ورسله، ومنه قوله تعالى:﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾.(٢)

وقوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.(٣)

وقوله حكاية لقول نوح عليه السلام:

﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ﴾.(٤)

وأهل هذا النوع من الكبر جزاؤهم جهنم وبئس المصير.

١- رواه مسلم فى صحيحه-كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الكبر ٤/ ٢٠٢٣ وأبو داود فى سننه-كتاب اللباس باب ما جاء فى إسبال الإزار ٤/ ٥٨، وابن ماجه فى سننه أيضا كتاب الزهد-باب البراءة من الكبر والتواضع ٢/ ١٣٩٧ - ١٣٩٨ واللفظ له.

٢- سورة البقرة بعض الآية ٨٧.

٣- سورة فصلت بعض الآية ١٥.

٤- سورة نوح الآية ٧.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.(١)

وثانيهما: استكبار الدنيا وهو التعالى بالمال والجاه والسلطان وشرف الأصل ونحو ذلك، وقد يقع من بعض المسلمين ضعاف الإيمان الذين غرتهم الحياة الدنيا، وهؤلاء إن لم يتوبوا ويتخلوا عن هذه الصفة الذميمة ويتحلوا بالتواضع فلا شك أن لهم فى النار حظا.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾(٢) أى كل المستكبرين فيشمل استكبار الدين واستكبار الدنيا، وعدم حبه تعالى لهم توعد وتهديد، وليس تعهد الثياب والنعل وأناقة المظهر من الكبر.

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال: "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل: إن الرجل يحب

١- سورة الزمر الآيتان ٧١، ٧٢.
٢- سورة النحل بعض الآية ٢٣.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة قال: إن الله جميل يحب الجمال" الكبر: بطر الحق وغمط الناس.(١)

ومن خلق المؤمن أن يتواضع لإخوانه المؤمنين لأنه ينشر المودة والألفة والمحبة بينهم ويعتز على الكافرين لأن عزته من عزة دينه.

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٢) وليست العزة من الكبر.

فالعزة كما قال الراغب حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم أرض عزاز أى صلبة.(٣)

على أن مشية الاختيال أمام العدو والمحارب محمودة فقد كان أبو دجانة سماك بن خرشة رجلا شجاعا يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء يعلّم بها إذا أقبل على القتال.

ففى غزوة أحد نادى رسول الله ﷺ فى صحابته: "من يأخذ هذا السيف بحقه فقام إليه رجال فأمسكه عنهم فقام أبو دجانة فقال وما حقه يا رسول الله؟ قال: "أن تضرب العدو حتى ينحنى". قال أنا آخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه فأخذه واعتصب بعصابته

١- صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب تحريم الكبر وبيانه ١/ ٩٣. سنن الترمذى – كتاب البر والصلة – باب ما جاء فى الكبر ٤/ ٣٦١.
٢- سورة المائدة بعض الآية ٥٤.
٣- مفردات الراغب – عز.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

رجل يتبختر بين الصفين.

قال ابن إسحاق فحدثنى جعفر بن عبد الله بن أسلم مولى عمر ابن الخطاب عن رجل من الأنصار من بنى سلمة قال: قال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر "إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن".(١)

وأما التذييل فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ١٨﴾.

والمختال: هو المتبختر فى المشى كبرا.

والفخور: هو المتباهى المفاخر بما اختص به من نحو مال وجاه، وقيل هو الذى يعدد ما أعطى ولا يشكر الله.

وهذا التذييل علة للنهيين السابقين يضيف إليهما تأكيداً وقوة فى التنفير من الكبر والتوقى منه.

وأرجع الزمخشرى المختال إلى الماشى مرحا، والفخور إلى المصعر خده من قبيل اللف والنشر غير المرتب.(٢)

وجوز الألوسى أن يكون من المرتب فالأول يناسب الأول والثانى يناسب الثانى، وجاءت (فخور) على صيغة المبالغة لأن ما يكره من الفخر: كثرته، أما قليله فيكثر وقوعه، فلطف الله تعالى بالعفو عنه كما لطف باختيال المجاهد أمام العدو.(٣)

ومن هذا رأينا أن التواضع خلق ينبغى أن يتحلى به المؤمن، لذا وصى به لقمان ولده.

١- أنظر الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام للسهيلى ٣/ ٥٠ مؤسسة مختار للطباعة والسيرة النبوية لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد ٣/ ٣٠-٣١ط عيسى البابى الحلبى.

٢- أنظر تفسير الكشاف ٣/ ٢١٢-٢١٣.

٣- أنظر روح المعانى ٢١/ ٩٠.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوصية الثامنة: القصد فى المشى

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾.(١)

بعد أن نهى لقمان ولده عن مشية السوء مشية التبختر والمرح والاختيال علمه كيف يمشى المشية المحمودة الدالة على رزانته واتزانه فأمره بالقصد فيها، والقصد: الوسط العدل بين الطرفين، أى يتوسط فى مشيته لتكون بين الخبب والتماوت.

فمشية الخبب الذى هو الإسراع مشية الهوج وهى تدل على خفة العقل ولا شك فهى مشية مذمومة.

ومشية التماوت وهى أن يتثاقل صاحبها فى مشيه ويمشى قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة تدل على تكلف صاحبها وبلادته. فهى مشية مذمومة أيضا.

قال ابن كثير: (وقد كره بعض السلف المشى بتصنع وتضعف حتى روى عن عمر أنه رأى شابا يمشى رويدا فقال ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدرة وأمره أن يمشى بقوة).(٢)

وروى عن ابن مسعود (كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ولكن مشيا بين ذلك).(٣)

١- سورة لقمان بعض الآية ١٩.
٢- تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٤.
٣- روح المعانى ٢١/ ٩١.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيها عباد الرحمن فيمشون على الأرض هونا أى بسكينة ووقار مقبلا معتدلا بين الصفتين المذمومتين وتلك مشية النبى ﷺ ففيما روى من نعته ﷺ "وإذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما انحط من صبب".[1]

تكفأ: أى تمايل إلى قدام، ينحط: أى يسقط.

من صبب: أى من موضع منحدر من الأرض.[2]

وفى رواية أخرى: (وإذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صبب)[3]

قال المباركفورى (أراد قوة مشيه كأنه يرفع رجليه من الأرض رفعا قويا وهى مشية أهل الجلادة والهمة لا كمن يمشى اختيالا ويقارب خطاه فإن ذلك من مشى النساء ويوصفن به).[4]

وأما ما ورد مما يدل على إسراع النبى ﷺ كما فى قول أبى هريرة "... وما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ فى مشيته كأنما الأرض تطوى له وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث"[5]

فالمقصود: السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت، أو لعل ذلك كان فى حالات خاصة تهم مصالح المسلمين كالجهاد والإصلاح ونحو ذلك أو أنه ﷺ كان يمشى مشيته المعهودة ولكنها بركة خطوه فى الأحيان التى تحتاج إلى الإسراع والله أعلم.

١- سنن الترمذى كتاب المناقب – باب ما جاء فى صفة النبى ﷺ ٥/ ٢٩٨.

٢- أنظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ١٠/ ٩٠.

٣- سنن الترمذى ٥/ ٥٩٩.

٤- تحفة الأحوذى ١٠/ ٩٢.

٥- سنن الترمذى كتاب المناقب باب فى صفة النبى ﷺ ٥/ ١٠٤.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإنما أوصى لقمان ابنه بالقصد فى المشى لأنه حال يدل على صاحبه أبلغ دلالة فالمتكبر والمختال له مشية، والأهـــوج غـير المتزن له مشية، والمتصنع المتكلف له مشية.

وأهل الصلاح والتقرب لهم مشية تدل على اتزانهم ورزانتـــهم وتتناسب مع وقارهم وسكينتهم.

فأراد لقمان أن يظهر ابنه مظهر الصالحين ليكون محل التقدير والتوقير.

ضوئيا بـ CamScanner

الوصية التاسعة: الغض من الصوت

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.(١)

هذا مظهر آخر يدل على اتزان الشخصية وحسن الأدب.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أى انقص منه واقصر، من قولك (غض من فلان إذا وضع منه وحط فى درجته.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أى أشدها نكارة وأقبحها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ قال الزمخشرى (الحمار مثل فى الذم والشتيمة، وكذلك نهاقه، ومن استفحاشهم لذكره مجردا، وتناديهم من اسمه أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به فيقولون: الطويل الأذنين كما يكنى عن الأشياء المستقذرة.

وقد عُدَّ فى مساوىء الآداب أن يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة.

ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا، وإن بلغت منه الرَّجلة(٢) فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة – وإن جعلوا حميرا وصوتهم نهاقا – مبالغة شديدة فى الذم والتهجين، وإفراط فى التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان).(٣)

١- سورة لقمان بعض الآية ١٩.

٢- الرجلة: المشى برجله أى وإن أتعبه المشى وعدم الركوب.

٣- الكشاف ٣/ ٢١٤.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا كان هذا الأدب سلوكا ينبغى أن يتحلى بـــه النـــاس فـى مخاطبة عامتهم فهو فى حق خاصتهم أوجب وأولى.

ولقد أدب الله تعالى المؤمنين به فى مخاطبـــة رســول الله ﷺ و بجعل رفع أصواتهم فى حضرته محبطا لأعمالـــهم كمـــا وعـــد بالأجر العظيم من غض صوته منهم عنده ﷺ.

فقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.(١)

ولا شك أن غض الصوت توقير للمخاطب واحترام له وهـــو دليل على حسن الأدب.

ويبعث على الألفة والمؤانسة بين المتكلم والمخاطب.

وهو أمارة من أمارات التواضع.

وهو صيانة للكلام إن كان سرا.

وهذا الأدب فى حق الأنثى من أوجب الواجبـــات لأن أمرهـــا مبنى على الستر، وصوتها من عوراتها فلا يصح أن تنشره علـى الأسماع، ومع وجوب أن تغض منه يجب عليها ألا تخضع به فى

١- سورة الحجرات الايتان ٢، ٣.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بصورة الرجال الأجانب بألا يكون فى صورة من صور التدلل أو التكسر، فذلك من تمام الأدب بالنسبة للأنثى وهو الذى أدَّب به الله تعالى نساء النبى ﷺ إذ قال مخاطبا لهن: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.(١)

تلك هى وصايا لقمان التى سجلها القرآن ولعلها جماع وصاياه لابنه على أن هناك وصايا أخرى كثيرة نسبت إليه لا سبيل إلى إسنادها ولا إلى الاستيثاق من نسبتها إليه إلا أنها نافعة وبها حكم جليلة نقلها المفسرون متفرقة فى كتبهم عند تفسير الآيات التى اشتملت على وصايا لقمان.

وجمعها صاحب التحرير والتنوير فى تفسيره وعدها نحوا من سبعين وصية.

واعتناء المفسرين بتناقلها وجمعها دليل على نفعها.

ومن أجل هذا رأيت أن أسوقها بغض النظر عن قائلها لفائدتها وهاك ما جمعه منها صاحب التحرير والتنوير:

- أى بنى إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها أناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل على الله تعالى لعلك أن تنجو ولا أراك ناجيا.
- من كان له فى نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ

١- سورة الأحزاب بعض الآية ٣٢.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزا والذل في طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية.

- ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع.
- يا بنى إياك والدَّيْن فإنه ذل النهار وهم الليل.
- يا بنى ارج الله عز وجل رجاء لا يجرئك على معصيته تعالى، وخف الله سبحانه خوفا لا يؤيسك من رحمته تعالى شأنه.
- من كذب ذهب ماء وجهه، ومن ساء خلقه كثر غمه، ونقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم.
- يا بنى حملت الجندل والحديد، وكل شيء ثقيل فلم أحمل شيئا هو اثقل من جار السوء، وذقت المرار فلم أذق شيئا هو أمر من الفقر.
- يا بنى لا ترسل رسولك جاهلا فإن لم تجد حكيما فكن رسول نفسك.
- يا بنى إياك والكذب فإنه شهى كلحم العصفور عما قليل يغلى صاحبه.
- يا بنى احضر الجنائز ولا تحضر العرس فإن الجنائز تذكرك الآخرة والعرس يشهيك الدنيا.
- يا بنى لا تأكل شبعا على شبع فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله.

ة ضوئيا بـ CamScanner

- يا بنى لا تكن حلوا فتبلع ولا تكن مرا فتلفظ.
- لا يأكل طعامك إلا الأتقياء وشاور فى أمرك العلماء.
- لا خير لك فى أن تتكلم ما لم تعلم ولما تعمل بما قد علمت فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب فحمل حزمة وذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى.
- يا بنى إن أردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه قبل ذلك فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره.
- لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.
- يا بنى أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ولابد لك منه.
- يا بنى كن كمن لا يبتغى محمدة الناس، ولا يكسب ذمهم فنفسه منه فى عناء، والناس منه فى راحة.
- يا بنى امتنع بما يخرج من فيك فإنك ما سكت سالم وإنما ينبغى لك من القول ما ينفعك.
- يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيى القلوب بنور العلم كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء.
- قيل للقمان ما بلغ بك ما نرى، يريدون الفضل فقال صدق الحديث وأداء الأمانة وترك مالا يعنينى.
- يا بنى ليكن أول ما تفيد من الدنيا بعد خليل صالح امرأة صالحة.

CamScanner ة ضوئيا بـ

- يا بنى إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون وهم إلى الآخرة سراعا يذهبون، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت واستقبلت الآخرة، وإن دارا تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج عنها.
- ليس غنى كصحة ولا نعمة كطيب نفس.
- يا بنى لا تجالس الفجار ولا تماشهم اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم.
- يا بنى جالس العلماء أو ماشهم عسى أن ينزل عليهم رحمة فتصيبك معهم.
- روى أنه قال لرجل ينظر إليه: إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض.
- وأن مولاه أمره بذبح شاة وأن يأتيه بأطيب مضغتين فأتاه باللسان والقلب ثم أمره بذبح أخرى وأن ألق منها أخبث مضغتين فألقى اللسان والقلب فسأله عن ذلك فقال هما أطيب ما فيها إذا طابا واخبث ما فيها إذا خبثا.
- روى أنه دخل على داود وهو يسرد الدروع فأراد أن يسأله عماذا يصنع فأدركته الحكمة فسكت، فلما أتمها داود لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال لقمان: الصمت حكمة وقليل فاعله.
- قيل للقمان أى الناس شر؟ فقال الذى لا يبالى أن يراه الناس سيئا أو مسيئا.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كان لقمان يفتى قبل مبعث داود فلما بعث داود قطع الفتـــوى فقيل له. فقال: ألا أكتفى إذا كفيت.
- إن الحاكم بأشد المنازل وكدرها يغشاه المظلوم من كل مكـــان إن يصب فبالحرى أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنـــة. ومن يكن فى الدنيا ذليلا خير من أن يكون شريفا، ومن يختر الدنيا مع الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الاخرة.
- روى أن داود سأل لقمان كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت فـــى يدى غيرى.
- يا بنى إن الله رضينى لك فلم يوصينى بك ولم يرضـــك لـــى فاوصاك بى.
- يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكـــرة وخرســـت الحكمـــة وقعدت الأعضاء عن العبادة.
- يا بنى إنما مثل المرأة الصالحة كمثل الدهن فى الرأس يليـــن العروق ويحسن الشعر، ومثلها كمثل التاج على رأس الملـــك ومثلها كمثل اللؤلؤ والجوهر لا يدرى أحد ما قيمته.
- ومثل المرأة السوء كمثل السيل لا ينتهى حتى يبلغ منتهاه:
- إذا تكلمت أسمعت، وإذا مشت أسرعت، وإذا قعـــدت رفعـــت وإذا غضبت أسمعت، وكل داء يبرأ إلا داء امرأة السوء.
- يا بنى لأن تساكن الأسد والأسود[1] خير من أن تساكنها تبكـــى وهى الظالمة وتحكم وهى الجائرة وتنطق وهى الجاهلة وهـــى أفعى بلدغها.

1- يريد ذكر الحيات.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

♦ يا بنى سافر بسيفك وخفك وعمامتك وخبائك وسقائك وخيوطك ومخرزك، وتزود معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقا إلا فى معصية الله عز وجل.

♦ يا بنى إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم فى أمرك وأمورهم، وأكثر التبسم فى وجوههم، وكن كريما على زادك بينهم فإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنهم، واستعمل طول الصمت وكثرة الصلاة وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء أو زاد وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم واجهد رأيك لهم إذا استشاروك، ثم لا تعزم حتى تثبت وتنظر.

♦ ولا تجب فى مشورة حتى تقوم فيها وتقعد وتنام وتأكل وتصلى وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك فى مشورتك، فإن من لم يمحض النصيحة من استشاروه سلبه الله رأيه.

♦ وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سنا، وإذا أمروك بأمر وسألوك شيئا فقل نعم ولا تقل: لا، فإن لا عى ولؤم.

♦ وإذا تحيرتم فى الطريق فانزلوا، وإذا شككتم فى القصد فقفوا وتآمروا، وإذا رأيتم شخصا واحدا فلا تسألوه عن طريقكم ولا تسترشدوه، فإن الشخص الواحد فى الفلاة مريب، لعله يكون عين اللصوص، أو يكون هو الشيطان الذى حيركم.

♦ واحذروا الشخصين أيضا إلا أن تروا ما لا أرى، لأن العاقل

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا أبصر بعينه شيئا عرف الحق منه، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

يا بنى إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيىء، صلها ولتستروح منها فإنها دين، وصل فى جماعة ولو على رأس زج.[1]

وإذا أردتم النزول فعليكم من بقاع الأرض بأحسنها لونا وألينها تربة وأكثرها عشبا.

وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس، وإذا أردت قضاء حاجتك فأبعد المذهب فى الأرض.

وإذا ارتحلت فصل ركعتين ثم ودع الأرض التى حللت بها وسلم على أهلها فإن لكل بقعة أهلا من الملائكة.

وإن استطعت ألا تأكل طعاما حتى تبتدئ فتتصدق منه فافعل وعليك بقراءة كتاب الله[2] ما دمت راكبا، وعليك بالتسبيح ما دمت عاملا عملا، وعليك بالدعاء ما دمت خاليا وإياك والسير فى أول الليل إلى آخره، وإياك ورفع الصوت فى مسيرك.

وهذا كل ما جمعه صاحب التحرير والتنوير من بطون كتب التفسير وغيرها من وصايا لقمان وحكمه قال بعده: فقد استقصينا ما وجدنا من حكمة لقمان مما يقارب سبعين حكمة.[3]

١- الزج: الحديدة التى تركب فى اسفل الرمح/ لسان العرب / زجج.

٢- صاحب التحرير والتنوير: لعله يعنى الزبور.

٣- أنظر التحرير والتنوير ٢١/ ١٦٩ - ١٧٣.

ة ضوئيا بـ CamScanner

ولئن كانت هذه حكما نافعه ترشد إلى أخلاق فاضلة فكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ يشتملان على أرفع الأخلاق وأعلاها وأكرمها وأسماها، ورسول الله ﷺ تسنم ذراها وبلغ فى مدارجها أرقاها حتى استحق الثناء عليه من خالقه بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] فلنا فيه ﷺ أسوة حسنة، ناهيك عن أخلاق الصحابة والتابعين والصالحين.

لكن على أى حال ما نسب إلى لقمان كلام حسن يتفق وأخلاق الإسلام ومعانيه، ومقاصده ومراميه، والناظر فيه يحسب أنه خارج من مشكاة الإسلام.

وما ذاك إلا لأن أهل الحق تجمعهم أخلاق راقية فى كل زمان ومكان، أدبهم الله بشرعه ونهجه فلم يصدر عنهم إلا كل فاضل جميل.

وما جاء فى القرآن الكريم من وصايا لقمان فيه حكمة بالغة تفسر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ وهذا الذى نقل إن صحت نسبته إليه دليل آخر على كمال ما وهبه الله من الحكمة.

والله أعلم

١- سورة القلم الآية ٤.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد..

فتلك هى تركة لقمان لابنه – بل لكل الأبناء – تركة عظيمة النفع تثرى وارثها فى الدنيا والآخرة.

لم يعبأ أن يترك له عقارا ولا دثارا، ولا درهما ولا دينارا لم يوصه بأموال جمعها، ولا بمناصب خلفها، ولا بأن يكون من أهل الثروات، لم يجعل دأبه ليل نهار أن يوفر له عيشة رغدة وحياة ناعمة ثم يقول له: يا بنى أمنت لك مستقبلا هنيئا، وأديت ما على نحوك وكفى.

فلقمان يعلم أن تلك أمور لا قرار لها ولا أمان بها، فكم ترك الأغنياء أموالا فى يد أولاد فسدة لم ينشئوهم التنشئة الصالحة فبددوها وضيعوها وأضحوا فقراء من كل شيىء، لا مال ولا خلق لا غنى المادة ولا غنى النفس.

وحتى لو حافظوا عليها وكاثروها دون أن يكون لهم وازع من دين يحكم تصرفهم فيها وإنفاقهم لها لكانت وبالا عليهم فى الدنيا والآخرة ولما جلبت تلك السعادات التى تكمن فى وصايا لقمان عليه السلام.

ضوئيا بـ CamScanner

لذا عمد إلى توريث ابنه ما به القرار والأمان والفلاح من الأدب الجم والأخلاق الرفيعة والتربية الحسنة وتلقين الحكمة، فبها يحسن التصرف فى أمور معاشه ويسلم من العثرات التى تودى بالمرء وتهلكه، وبها يألف الناس وتألفه الناس، وتمتد بينه وبينهم حبال المودة والمحبة، وبها يعيش آمنا قرير العين محمودا فى الدنيا محمودا فى الآخرة.

تلك هى وصايا لقمان، أو قل الأصول التى أسس عليها منهجه فى التربية، ذلك المنهج الكامل الذى ينبغى أن يسير على دربه الآباء والمربون، لا سيما فى هذا العصر الذى ساء فيه الخلق، وسفرت فيه المعاصى، وجاهر الناس بما يغضب الله تعالى غير مبالين بعقابه، حتى تهلهل المجتمع وتداعى بناؤه.

فلا شك أن صلاح المجتمع من صلاح الفرد، وصلاح الفرد موكول إلى الأبوين، فإن لم يكونا صالحين، ففاقد الشىء لا يعطيه، فيخلفان وراءهما نشأ تخلق بأخلاقهما الفاسدة فلا يزيد المجتمع إلا وبالا.

وإننى لأفزع إلى كل أب أن يهتم بولده وأن يعتنى بتربيته على الدين والخلق، وأن يتعهده بهذا ما دام حيا، ولو كبر الولد وتزوج، ولنا فى يعقوب عليه السلام كما مر أسوة حسنة فى ذلك.

فقم أيها الوالد إلى نشئك فارعهم وقوم عوجهم فهم زرعك اليوم وحصادك غدا.

CamScanner

والتزم أنت أولا بالدين والخلق وبما تقول حتى تكون قدوة لهم وحتى يقع كلامك منهم موقع التأثير والسمع والطاعة.

واعلم أن ولدك هو سرك الذى ينبئ عن مخبؤ أمرك وأثرك الذى يخلفك من بعدك فاجتهد أن يكون نبأ صالحا وأثرا طيبا نافعا لنفسه ولك وللمسلمين.

والله الهادى إلى سواء السبيل

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مصادر البحث

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: كتب التفسير وعلوم القرآن:

١- أسباب النزول للسيوطي تحقيق قرنى أبى عميرة - مكتبة نصر.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للقاضى أبى السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادى. دار الفكر.

٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضى ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن على البيضاوى. دار الكتب العلمية.

٤- البحر المحيط للعلامة محمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى. دار الكتب العلمية.

٥- التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر بن عاشور / الدار التونسية للنشر والدار الجماهيرية للنشر والتوزيع.

٦- تفسير الرازى المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للامام محمد الرازى فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر - دار الفكر.

٧- تفسير القرآن العظيم للحافظ إسماعيل بن كثير القرشى عيسى البابى الحلبى.

٨- تفسير القرطبى (الجامع لا حكام القرآن) لشمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى - دار الغد العربى.

CamScanner ضوئيا بـ

٩- جامع البيان فى تفسير القرآن لأبى جعفر الطبرى / دار الريان للتراث.

١٠-روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة شهاب الدين السيد محمود أفندى الألوسى البغدادى / المركز الإسلامي للطباعة والنشر.

١١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى – دار المعرفة.

١٢- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز للقاضى أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى تحقيق عبد السلام عبد الشافى محمد. دار الكتب العلمية.

ثالثا: كتب السنة وشروحها:

١- الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان للأمير علاء الدين على بن بلبان الفارسى تحقيق شعيب الأرناؤوط • مؤسسة الرسالة.

٢- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للإمام الحافظ محمد عبد الرحمن عبد الرحيم المباركفورى. "دار الفكر"

٣- سنن ابن ماجه للحافظ عبد الله محمد بن يزيد القزوينى – دار الريان للتراث.

٤- سنن أبى داود للحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى – دار الريان للتراث.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٥- سنن الترمذى للحافظ أبى عيسى محمد بن عيسى بن سوره بن موسى الترمذى ط / مصطفى البابى الحلبى.

٦- صحيح البخارى لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن برد زبه البخارى – دار إحياء التراث العربى.

٧- صحيح مسلم للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى عيسى البابى الحلبى.

٨- صحيح مسلم بشرح النووى للإمام محيى الدين أبى زكريا يحيى بن شرف بن مرى الحزامى الحوارى – دار الريان للتراث.

٩- فتح البارى بشرح صحيح البخارى للإمام الحافظ أحمد بن علىٍ بن حجر العسقلانى – دار الريان للتراث.

١٠-كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى – مؤسسة الرسالة.

١١- المستدرك على الصحيحين للإمام عبد الله الحاكم النيسابورى – دار الفكر.

رابعا: كتب العقيدة والسيرة

١- إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى – المكتبة التجارية الكبرى.

ة ضوئيا بـ CamScanner

٢- الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام الفقيه المحدث أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن احمد بن أبى الحسين الخيثمى السهيلى – مؤسسة مختار للطباعة.

٣- السيرة النبوية لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد ط عيسى البابى الحلبى.

٤- قصص الأنبياء لابن كثير – مطبعة الأنوار المحمدية.

خامسا: معاجم اللغة

١- لسان العرب للإمام العلامة أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقى المصرى- دار صادر.

٢- مفردات ألفاظ القرآن لأبى القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهانى – دار الفكر.

حة ضوئيا بـ CamScanner